يوكو أوغاوا

حذاءٌ لكِ

رواية

ترجمة:
معن عاقل

دار الآداب

مكتبة | 677
سُر مَن قرأ

حِذاء لِكِ

حذاءٌ لَكِ

يوكو أوغاوا / روائيّة يابانيّة

الطبعة الأولى عام 2019

ISBN 978-9953-89-644-1

Kusuriyubi no Hyohon

Copyright © 1994 by Yoko Ogawa

First published in Japan in 1994 by Shinchosha Publishing Co., Ltd, Tokyo

Arabic language rights arranged with Yoko Ogawa through Japan Foreign-Rights Centre

مكتبة ٢٠٢١ ٢ ٢٦
t.me/t_pdf

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)

فاكس: 009611861633

e-mail: rana@daraladab.com

info@daraladab.com

/Daraladab @Daraladab daraladab.com

يوكو أوغاوا

مكتبة 677
سُر مَن قرأ

حِذاء لَكِ

ترجمة: معن عاقل

رواية

دار الآداب ـ بيروت

1

قريبًا سيمضي عام على عملي في هذا المختبَر للعيِّنات. ولأنَّ هذا العملَ مختلفٌ عن طبيعة العمل الذي كنت أزاوله من قبلُ، فقد ارتبكتُ في البداية، ولكنَّني اعتدته الآنَ تمامًا. أصبحت أعرف حقَّ المعرفة المكانَ الذي تُصنَّف فيه الأوراق المهمَّة، وأُجيد الضرب على الآلة الكاتبة، وصرت قادرة على الردِّ على الاستعلامات الهاتفيَّة، وعلى شرح دور المختبَر بتهذيب ولطف. وفعلًا، أضحى معظم الناس، الذين يتَّصلون عبر الهاتف، راضين عن توضيحاتي، ومطمئنِّين بالتأكيد إليها أيضًا، ما داموا يأتون في اليوم التالي ليطرقوا باب المختبَر، وهم يضمُّون بضائعَهم القيِّمة إلى صدورهم.

ليس العمل هنا معقَّدًا مثلما يبدو، بل إنَّه بسيط للغاية. ويكفي القليلُ من الانضباط والتيقُّظ للإيفاء بكلِّ الالتزامات

من دون حدوث أيِّ مشاكل.

لكنَّه غير مُضجر أيضًا، فالأشياء المتنوِّعة للغاية، والتي يُحْضرها الزوّار لنا، تمنع عنِّي المللَ، ولاسيَّما أنَّهم لا يتعجَّلون، في معظم الحالات، المغادرةَ بعد أن يملأوا الاستماراتِ الضروريَّةَ، لأنَّهم يرغبون في أن يروُوا لي عن الظروف التي اكتنفت وصول هذه الأشياء إلينا.

الإصغاء إلى ما يقولونه هو جزءٌ هامّ من العمل. وأعتقد أنَّني، خلال هذا العام، أحرزت تقدُّمًا في طريقة الاستماع والابتسام والشروع في محادثة، بحيث يشعر الشخص المقابل لي بالراحة.

شخصان فقط يعملان هنا: أنا والسيِّد ديشيمارو، الذي هو، في آن معًا، المديرُ والمتخصِّص بالعيِّنات. ولعلَّ هذا غيرُ كافٍ، بسبب اتِّساع المبنى. فهنا، يوجد عدد لا يُحصى من الحُجُرات الصغيرة، إضافة إلى حديقة وعلِّيَّة وقبوٍ، وصالةِ حمّامات واسعةٍ أيضًا، مع أنَّها ليست مستخدَمة.

وما دام حجم العمل لا يتعلَّق باتِّساع المكان، ومع أنَّنا كنَّا شخصين فقط، فقد استطعنا استخدام حيِّز المخبَر على أكمل وجه، فلم أواجه أيَّ مشكلة في الساعات الإضافيَّة، ولا في المردود، وكنت حرَّة في الحصول على أيَّام إجازاتي.

كان دوري ودورُ السيِّد ديشيمارو محدَّدَين بوضوح، فهو المسؤول عن تحضير العيِّنات، باعتباره التقنيَّ. أمّا أنا، فأهتمُّ باستقبال الزائرين، وتصنيف المِلَفّات، والقيامِ بمهمَّات أخرى متنوِّعة.

السيِّد ديشيمارو هو من شرح لي تنظيم العمل: طريقة الجدولة، وهو ما يجب الانتباه له عندما نتلقّى شيئًا ما؛ استخدام الآلة الكاتبة، وكيف نملأ مِلَفًّا؛ يوم جمع حاويات القمامة، ومكان وضع موادِّ التنظيف وأواني تحضير الشاي، أو اللوازم المكتبيَّة. وشرح لي لائحة القواعد بكثير من الصبر. لم يكن يغضب حين أرتكب خطأً ما، وعاملني بهدوء أعصاب. وعندما يصعب عليه شرح شيء بالكلمات، يُريني إيَّاه بعينَيّ.

وهكذا استوعبتُ ما ينطوي عليه عملُ المخبَر. ومنذ ذلك الحين، أصبحت قادرةً، باطِّراد، على القيام بكلِّ شيء تقريبًا، ولم يعد يتدخَّل في أيِّ شيء. وقال لي قبل أن يستغرق في عمله:

ـ بالنسبة إلى الباقي، افعلي ما يحلو لكِ، وسيكون رائعًا.

وبفضل ذلك، استطعت أن أنظِّم إيقاعيَ الخاصَّ، وأن أقدِّم أسلوبيَ الشخصيَّ في التوثيق.

هنا، لا توجد أوامرُ، ولا التزاماتٌ، ولا أنظمةٌ، ولا شعاراتٌ، ولا أقسامٌ، ولا اجتماعٌ صباحيٌّ. يمكنني أن أعالج العيِّنات وأحتفظَ بها بملء حرِّيَّتي. أحبّ المختبر حبًّا جمًّا. ولو أمكنني، لآثرت البقاء فيه بقيَّةَ حياتي. وأظنّ أنَّ السيِّد ديشيمارو كان سيسمح لي بذلك.

قبل مجيئي إلى هنا، كنت أعمل في مصنع مرطَّبات في إحدى القرى الريفيَّة قرب شاطئ البحر. كان يقع على قمَّة هضبة، محاطًا بكروم ذات أشكال مستديرة تُراعي الشاطئ. كنَّا نحضِّر فيه، من ثمار جُنِيت محلِّيًّا، مشروباتٍ غازيَّةً مصنوعة من عصير البرتقال والليمون الأخضر والعنب.

وبعد أن عملتُ ستَّةَ أشهر في قسم تنظيف الزجاجات، نقلوني إلى صناعة الصودا، وبقيتُ فيها زمنًا طويلًا. كان عملي يقوم على ضبط السلسلة، ونزعِ المنتوجات التالفة، والتحقُّقِ من درجة شفافيَّة المشروبات.

لم يكن عملًا محفِّزًا، لكنَّني كنت أحبُّ فعلًا أن أثرثر مع زميلاتي عن أصحابنا المغرَمين، وكان منظر البحر الهادئ عبر نوافذ المعمل يمنحني السكينة. كانت أيَّامي مفعَمةً برائحة الليمون الزكيَّة.

وذاتَ يوم صيفيّ، حين كنَّا في أَوْجِ انشغالنا بتلبية الطلبيَّات، علقت إصبعي في شقٍّ بين خزّان مملوء والسلسلة.

ومن شدَّة المفاجأة وروعِها، شعرتُ بأنَّ الزمن توقَّف. انطلق نظام السلامة المهنيَّة على الفور بضجيج صاخب، وتوقَّفت الآلةُ، وتساقطت قطراتٌ من الزجاجات المصفوفة على السلسلة، بينما راح مصباح الأمان يومض في السقف. أصبح كلُّ شيء صامتًا. وكنت أنا أيضًا هادئةً على نحو غريب، متنبِّهة للصمت. ولم أشعر بألم على الإطلاق.

وفجأةً، لاحظتُ أنَّ الدم تدفَّق في الحوض، وصبَغَ عصير الليمون باللون الورديّ. كان لونه الفاتح يلتمع بالفقَّاعات.

من حسن الحظِّ أنَّ الجرح لم يكن بليغًا. انتُزِعَت فقط قطعةُ لحم من طرف بِنصر يدي اليسرى. لكنَّه ربَّما كان أخطر ممَّا ظننت. لقد فقدت، على الرَّغم من كلّ شيء، جزءًا من جسدي. ومع ذلك، لم تبلغ إصابتي حدَّ إقلاق مَن حولي. صحيح أنَّني، حين نزعوا الضمَّادة أوَّلَ مرَّة، ظننت أنَّني سأُعاني عدمَ القدرة على استخدام يدي اليسرى من جديد، وتولَّد لديَّ شعورٌ غريب بأنَّ توازنًا ما قد اختلَّ، لكنَّ ذلك لم يضايقني في حياتي اليوميَّة، واعتدتُه في غضون ثلاثة أيَّام. الأمر الوحيد الذي آلمني، هو أنَّني رحت أتساءل أين ذهبت قطعة اللحم المنتزَعةُ من إصبعي. فالصورة الوحيدة التي بقيت لها هي صورةُ صَدَفة صغيرة وورديَّة كزهرة الكرز، وطريَّةٍ كثمرة

ناضجة. سقطتِ الهُوَيْنا في عصير الليمون، ومكثتْ في القاع، تدور مع الفقّاعات.

وفي الواقع، تبيَّن أنَّ طرف إصبعي المسحوقَ بدواليب الآلة جرفه سيل المادَّة المطهِّرة.

لم أعد أستطيع، من الآن فصاعدًا، أن أشرب أيّ رشفة من مشروب غازيّ، لأنَّني صرت أشعر تحت لساني بقطعة اللحم الطريَّة من بِنصري. وبسبب هذا الحادث، توقَّفت عن احتساء المشروبات الغازيَّة والعملِ في المصنع.

ذهبت إلى المدينة بإصبعي المبتورة. كانت المرّة الأولى التي أُغادر فيها هذه القريةَ الرابضة على شاطئ البحر لأذهب بعيدًا. وبما أنَّني كنت بلا أُسرة وبلا أصدقاء، لم يكن يَسَعُني في البداية أن أفعل شيئًا سوى التجوُّل بلا هدف. اجتزت ممرّاتٍ للمشاة، وهمت على وجهي بين الورشات، وتسكَّعت في المُتَنَزَّهاتِ العامَّة، وعبرت أحياء تحت الأرض، وهكذا صادفت المخبَر.

حين اكتشفته، ظننت أنَّه مجرَّد مبنًى ينتظر الهدم. وهذا يوضِّح إلى أيِّ مدًى كان قديمًا ومهجورًا.

كانت تحيط به منطقةٌ سكنيَّة ميسورة، نوافذُ بيوتها بارزة، وهناك وِجارٌ للكلب وحديقة مع مرج. وكانت الشوارع نظيفة وهادئة، تعبرها مركبة من حين إلى آخر. في هذه البيئة، كان

المخبَر يُفصح عن جوٍّ خاصٍّ جدًّا.

كان البناء الخرسانيُّ ضخمًا بطوابقه الثلاثة، لكنَّ جدرانَه الخارجيَّةَ وإطاراتِ نوافذه وبلاطَ الممرِّ المفضي إليه والهوائيَّاتِ، وكلَّ شيء فيه، كانت بالية. بحثتُ عبثًا، فلم أجد شيئًا جديدًا.

شرفات صغيرة، يمكن لشخص واحد فقط أن يقف عليها. تتتالى بانتظام: عَشْرة أمتارٍ عرضًا، وأربعة ارتفاعًا. كانت حواجزها صدئة بالكامل. ومع أنَّها فارغة، ولا يوجد فيها شيءٌ، لا ملاقط غسيل، ولا أصص أزهار، ولا علب ورق مقوًّى، لتُعطيَها مظهرًا من الحياة، فإنَّها لم تكن تشي بالفقر.

وعلاوة على ذلك، كان هنالك تسعةُ أنابيب صرف صحِّيّ، وثمانون خطَّافًا للتجفيف، وأربعون فتحة تهوية متباعدة بمسافات منتظمة، من دون أن ينخلع أيّ منها أو يتلف.

كان زجاج النوافذ، السميكُ والمتين، منظَّفًا بعناية. والأفاريزُ البارزة فوق الواجهة تشكِّل نموذجًا يتماوج تبعًا لانحناءاتها. إنَّه مبنًى يُخفي في ثناياه هذا النوعَ من الرهافة.

وثمَّة إعلان صغير ملصَقٌ على عمود آجرّ في المدخل:

«نبحث عن عاملة مكتب

تساعد في تحضير العيِّنات.

الخبرةُ والعمرُ غيرُ مهمَّين

اضغطوا على الجرس هنا.»

كان الإعلانُ مكتوبًا بحبر أسود، وبخطٍّ متَّسق. وكان الشريط اللاصق على الزوايا الأربع جافًّا، وبدا أنَّه يوشك أن ينفكّ. ضغطتُ على زرّ الجرس.

سمعتُ رنينًا بعيدًا. بدا الصوت صادرًا من غابة عميقة قابعة في جوف المبنى. فُتح الباب بعد وقت طويل، ووقف السيِّد ديشيمارو أمامي.

«جئت من أجل الإعلان،» قلتُ متردِّدة، وأنا أُشير إلى العمود. وأضفت: «ألم يفُتِ الأوان؟»

ـ لا. لا بأس. تفضَّلي بالدخول.

دعاني إلى أن أتبعه بحركة مبالِغة من يده.

كان الداخل أكثرَ حفاوة ممّا يمكن للمرء أن يتخيَّله وهو في الخارج، ربَّما بسبب الأرضيَّة الخشبيَّة التي لم تكن باليةً مثلَ الخرسانة، وبسبب أشعَّة شمس نهاية الصيف المتسلِّلةِ من الحديقة. وأنا أعبُرُ الممرَّ خلفه، تأكَّدتُ من أنَّ البناء مربَّع الشكل مع فناء داخليّ واسع تُحيط به النباتات، وتطلُّ عليه

سلسلة حُجُرات متساوية الحجم. أدخلني إحداها.

كانت توجد أريكة، وطاولةٌ واطئة، وخزانة بخمسة رفوف، ومصباحٌ وساعة حائط، تملأ الحيِّز تقريبًا. وثمَّة ستائرُ زرقاءُ سماويَّة معلَّقة على جانبي النافذة. السقف عالٍ، وغطاء المصباح المتدلِّي من الزجاج الكامد، على شكل زنبقة.

لم أرَ شيئًا يشبه العيِّنة من قريب أو بعيد. في هذا المكان جرت المقابلة. كنَّا نجلس وجهًا لوجه.

ـ حتى أكون صريحًا، ليس لديَّ فعلًا أسئلةٌ أطرحها عليكِ. بالتأكيد، أودّ أن أعرف على الأقلّ اسمَك وعنوانك، حتى لو لم يكن لهذه الشكليّات أيُّ معنى بالنسبة إلى المخبَر.

كان السيِّد ديشيمارو يرتدي مئزرًا أبيض كمئزر الأطبَّاء، وقد غاص في الأريكة وعقدَ ذراعيه. لم يكن مئزرًا باليًا، لكنَّه يوحي بأنَّه يرتديه منذ زمن طويل. على الجيب الأيمن وردن المعصمين والصدر، توجد بقع لا تكاد تُلحَظ، كأنَّها آثار دموع.

ـ أعتقد أنَّ الأَولى بكِ أنتِ أنْ تطرحي عليَّ بعضَ الأسئلة. لم يُحَدِّد الإعلانُ أيَّ شيء.

كانت نظرته صافية، وعيناه هادئتين. وعلى الرَّغم من

بريق الضوء الوافد من الفناء، فإنَّني رأيت بوضوح طوقَ الحدقتين.

«أجل، هذا صحيح،» تمتمتُ وأنا غير قادرة على مفارقة نظرته المذهلة.

ثم تنفَّستُ بعمق قبل أن أتابع وأنا أنتقي كلماتي:

ـ يتعلَّق الأمر، إذًا، بمخبَر، وليس نوعًا من المتحف؟

ـ لا. إطلاقًا لا.

هزّ رأسه مبتسمًا، كأنَّه توقَّع منِّي مثلَ هذا السؤال.

ـ هنا، لا توجد بحوث، ولا معارضُ. يقتصر دورنا على تحضير العيِّنات وحفظِها. هذا كلُّ ما في الأمر.

ـ إذًا، ما فائدة هذه العيِّنات؟

ـ من الصعب أن نجد لها غاية مشتركة. فالأسباب التي تدفع إلى الرغبة في عيِّنة ما مختلفةٌ بالنسبة إلى كلّ واحد منَّا. إنَّه أمر يتعلَّق بمشكلة شخصيَّة، ولا عَلاقة له بالسياسة أو العلم أو الاقتصاد أو الفنّ. وحين نُحضِّر العيِّناتِ، نقدِّم إجابات عن هذه المشاكل الشخصيَّة. هل تفهمين؟

وبعد لحظة تفكير، أدليتُ بردٍّ سلبيّ:

ـ اعذرْني. أعتقد أنَّ العملَ أصعبُ ممّا ظننتُ.

ـ لكنْ، لا. من الطبيعيّ أن تكوني مرتبكةً. لا يوجد مخبَر من هذا النوع في أيِّ مكان، ولذلك يلزمكِ بعضُ الوقت لتفهمي. من جهة أخرى، ليس لهذا المخبَر شعارٌ، ولا منشوراتٌ إعلانيَّة في الدليل السنويّ. والناس الذين يحتاجون فعلًا إلى عيِّنة يستطيعون الوصول إلى هنا وأعينُهم مغمَضةٌ. وجود مخبَر عيِّنات يجب أن يكون سرِّيًّا.

لكن يبدو لي أنَّ طريقتي في الشرح ليست بارعة. أضعتُ الوقت وأنا أحاول أن أوضح لكِ المبدأ. الواقع أبسط بكثير. يأتي زائر مع مادَّته، يريد أن يحفظها. وبعد الإجراءات الشكليَّة، تأخذينها أنتِ وأجعل منها عيِّنة. وبعد ذلك، نتلقَّى مبلغًا ماليًّا يتناسب مع العمل المنجَز. في الواقع، هذا كلّ شيء.

ـ هل تعتقد أنَّني مؤهَّلة لهذا العمل؟

ـ بالتأكيد، إذ لا توجد تقنيَّة خاصَّة. الأهمُّ هو الإخلاصُ. يجب عدم إهمال شيء. حتى أصغرُ العيِّنات أو أكثرُها تفاهة، يجب أن نحبَّها.

تفوَّه بالكلمة الأخيرة ببطء كأنَّها جوهرة.

كانت بعض العصافير الصغيرة تعبُرُ وسط النباتات في الفناء. وكان أثر طائرة يجتاز السماء بشكل مائل. وأشعَّة الشمس لا تزال مشبَعة بضوء صيفيّ. كان المنظر، كالمبنى

تمامًا، هادئًا إلى حدِّ الهمود.

وبما أنَّه لم يكن يوجد شيء بيننا، نحن الاثنين، لا فنجانُ قهوة ولا مرمدةُ لفائفِ تبغ، ولا ولّاعةٌ أو أدواتُ كتابة، لم أستطع أن أفعل شيئًا سوى البقاءِ ساكنةً، وأنا أضع يدًا فوق يدٍ على ركبتي.

حين نظرتُ إلى السيِّد ديشيمارو من جديد، لاحظتُ أنَّ تعبير وجهه وسائر حركات جسده ليس بقوَّة تعبير نظرته. كان كلُّ شيء متَّسِقًا، ولا مأخذَ عليه. لونُ بشرته وشعره وشكلُ أذنيه وطولُ أطرافه وعرضُ منكبيه وصوتُه؛ كلُّ هذا متناسق. ومع ذلك، لا أدري لماذا شعرت بخطر وشيك جعلني متحفِّظة.

اعتقدتُ أنَّ مردَّ ذلك يعود إلى انفصاله التامّ عن كلّ شيء. فهو لا يحمل ساعة يد، ولا يضع حتى قلمَ حبر في جيب صدريَّته. ولا يوجد كدمات أيضًا على وجهه، ولا شاماتٌ أو ندوبٌ.

«هل المكان هادئ هكذا دومًا؟» سألته، وعيناي تحدِّقان في البقع فوق ياقته.

ـ أجل. تحضير العيِّنات عمل هادئ. ومن جهة أخرى، لا يوجد هنا سوى سيِّدتين مسنَّتين، إضافة إليَّ أنا.

ـ سيِّدتان مسنَّتان؟

ـ إنَّنا في سكن قديم لفتيات شابّات. أحدِّثك عن حقبة ترجع إلى عشرات السنين. لكنَّ عدد المقيمات انخفض بالتدريج، وشاخ كلُّ شيء، وأصبح المبنى خاليًا. كانت السيِّدتان المسنَّتان موجودتين فيه حين اشتريته لأنقل إليه مخبَري، وبقيتا فيه. لذلك استمرَّتا في العيش هنا من دون أن تكون لهما أيُّ عَلاقة بالعيِّنات.

مكتبة
t.me/t_pdf

ـ أنت وحدك من تحضِّرها؟

ـ أجل، وهذا كافٍ. لكنَّني أحتاج إلى شخص يهتمّ بعمل المكتب. أريد أن أركِّز أقصى طاقتي في التحضير. مضى شهر على رحيل الموظَّفة السابقة، وأنا في مأزق.

سكتَ، وظلَّ لبرهة شاردَ النظر نحو غطاء المصباح على شكل زنبقة، ثم نهضَ بسرعة ليفتح النافذة المطلَّة على الفناء. اهتزَّ الزجاج، وتسرَّبت ريح جافَّة إلى الحجرة.

«ماذا كنتِ تعملين في السابق؟» سألني.

ـ كنت أعمل في مصنع مشروبات غازيَّة.

ـ آه، حقًّا؟ ما رأيكِ في أجر يفوق أجرك في المصنع بعشرين في المئة؟ أمّا بالنسبة إلى المكافأة، فتعادل أربعة أشهر، لمرَّتين، صيفًا وشتاءً. التوقيت من الثامنة والنصف

صباحًا حتى الخامسة مساءً، مع استراحة مدَّتُها ساعةٌ للغداء، ونصفُ ساعة بعد الظهر. لكنَّ العمل يتعلَّق بعدد الزُّبُن. يحدث ألَّا يأتي أحد في اليوم، كما تعرفين. والعُطَل هي يوما السبت والأحد وأيَّام الأعياد. ويحقّ لك إجازة سنويَّة أيضًا. هذه ليست شروطًا سيِّئة، أليس كذلك؟

وافقْتُهُ. ولأنَّ النافذة خلفه، غلَّفَتْ أشعَّة الشمس مئزرَه الأبيض، وأحاطته بهالة ضياء.

ـ حسنًا، اتَّفقنا. أنا أعيِّنكِ.

مدَّ ذراعه المحاطة بهالة الضوء. اقتربتُ لأصافحه. شدَّ على يدي بقوَّة، كأنَّه يريد أن يحبس أصابعي في راحة يده.

بعد ذلك، طلبتُ من السيِّد ديشيمارو أن يُريَني عيِّنةً ما، لا على التعيين. وفي الواقع، لم أنظر إليها قطُّ بانتباه، وحتى لم يكن لديَّ صورة ملموسة عنها. ربَّما رأيتُ فيما مضى فراشات أو سلطعونات في مختبر العلوم الطبيعيَّة، لكنَّني كنت أفكِّر في أنَّني ما دمت وُجِدْتُ في مخبَر خاصّ، وهو ما خُيِّل إليّ أنَّ السيِّد ديشيمارو أراد قوله، فيجب عليّ أن ألقي نظرة على العيِّنات التي ينجزها.

أحضرَ لي عيِّنات فطر من المخبَر الموجود في القبو، لكنَّني لم أستوعب على الفور أنَّها عبارة عن فطر. في البداية، ظننتها كائناتٍ عضويَّةً بسيطة من الأعماق البحريَّة،

هلاميَّةً، لأنَّها كانت تطفو في سائل يملأ أنبوب اختبار.

«هل يمكنني أن أنظر إليها عن قرب أكثر؟» سألته.

«تفضَّلي،» أجابني، وهو يناولني الأنبوب.

كان رفيعًا، وأصغرَ من أن يستقرَّ في باطن راحة يدي، ومغلَقًا بسدادة فلِّين. وعلى السدادة، أُلصِقَتْ لصاقةٌ صغيرةٌ تحمل بلا شكٍّ اسمَ من طلب هذه العينّة، مكتوبًا بخطّ آلة كاتبة، ومصحوبًا برقم وحرف أبجديّ.

كانت توجد فيه ثلاثُ فطريَّات، لا يتعدَّى طولُ كلٍّ منها بضعةَ ملِّيمترات، مع سويقتها؛ وقبّعتُها ذات الشكل البيضاويّ، مقعَّرةٌ في وسطها مثل الكريات الحمراء. كانت تتحرّك وتتصادم في السائل عند أقلّ حركة من أنبوب الاختبار.

بدا السائل العديمُ اللون والشفَّافُ أكثفَ من الماء بقليل. كان يغمرها، مبرزًا بشكل جميل لونَها اللامع بلون صبغة الأزرق الغامق.

«هل هذه عيِّنة؟» تمتمتُ.

ـ أجل، أَحْضَرَتْ لي هذه الفطورَ فتاةٌ شابَّة في السادسة عشرة من عمرها تقريبًا. وَضَعَتْها ثلاثتَها على طبقة قطن طبِّيّ في علبة صابون فارغة. وحين رأيْتُها، قلتُ في سرِّي على

الفور إنَّه يجب التصرُّف بسرعة، لأنَّ التيبُّس والتعفُّن بدآ يدبَّان فيها.

كنَّا نراقب الأنبوب، أنا والسيِّد ديشيمارو.

ـ أخْبَرَتْني بأنَّ هذه الفطور نمَت على أنقاض منزلها المحترق. بدتْ متوتِّرة، وطأطأت رأسَها، وراحت تشدّ بقوَّة على قبضة حقيبتها الموضوعة فوق ركبتيها، لكنَّ هيئتها وطريقة حديثها كانتا متَّزنتين تمامًا.

كان يوجد على خدِّها الأيسر أثرُ حرق؛ أثرٌ خفيف كدت ألَّا ألاحظه في ضوء الشمس الغاربة، لكنَّني خمَّنتُ على الفور أنَّ له علاقة بحريق منزلها.

«احترق المنزل. مات أبوايَ وأخي في الحريق، وأنا الوحيدة الناجية. في اليوم التالي، وجدتُ هذه الفطور على الأرض المحروقة. كانت ثلاثتها في إضمامة واحدة، لذلك قطفتها تلقائيًّا. فكَّرتُ كثيرًا، وأظنّ أنَّ الأفضل بلا شكٍّ هو أن أطلب منك أن تصنع منها عيِّنات. أودّ أن أحفظ مع هذه الفطور كلَّ ما اختفى في النار. هل توافق؟» شَرَحَتْ باختصار، من دون أن تقول شيئًا زائدًا. وبالتأكيد، أجَبْتُها بأنَّني موافق. لقد فهِمَتْ تمامًا معنى المخبَر. أدركْتُ ذلك لأنَّها استخْدَمَتْ كلمة «حفظ.»

تنهَّد السيِّد ديشيمارو تنهيدةً عميقة.

قرَّبتُ أنبوب الاختبار أكثر. حتى الصفيحات تحت القبَّعات تنعكس على الزجاج. كانت تشبه أشغالًا يدويَّة صُنِعَتْ بأناة. وظلَّت بعض الأبواغ عالقة هنا وهناك بين الصفيحات.

ـ ومتى ستُعيد إليها هذه الفطور؟

ـ لا أُعيدها. كلّ العيِّنات تُرَتَّب وتُحْفَظ تحت إشرافنا. هذه هي القاعدة. وبالطبع، يمكن لزُبُننا زيارتُها متى شاؤوا. لكنَّ معظم الناس لا يعودون أبدًا إلى هنا. وهذا هو حال الفتاة الشابّة صاحبةِ الفطور أيضًا، لأنَّ معنى هذه العيِّنات هو أن تُحْفَظ وتُعْزَلَ وتُنْجَز. لا أحد يجلب أشياء حتى يتذكَّرها بحنين مرارًا وتكرارًا.

كنت أرى السيِّد ديشيمارو من خلال زجاج أنبوب الاختبار. عيناه محدِّقتان تمامًا. وعلى الطاولة برز الضوء الذي بدأ يضعف. وراح أثر الطائرة في السماء يتلاشى في الشمس الغاربة.

فكَّرتُ فجأة في أنَّ ما يقع تحت نظره ربَّما ليس الفطور، وإنَّما بِنصرُ يدي اليسرى. إنَّه جرح لا يُلاحَظ في الظروف العاديَّة، لكن إصبعي في تلك اللحظة كانت مستقرَّة على الحدّ الفاصل بين الفلِّين والزجاج، قريبًا من أنفاسه. راح يحدِّق كأنَّه يحاول أن يرمِّم قطعة اللحم المفقودة.

بقينا صامتَين لبرهة. خطر لي أن أعدِّل، برزانةٍ، وضعيَّةَ إصبعي، ولكن كلَّما ازداد شعوري بها، تَصَلَّبَ طرفها أكثر. لم يبدُ أنَّ عين السيِّد ديشيمارو تريد أن تحيد عنها. وبيننا نحن الاثنين، ظلَّت الفطور ترتعش.

2

كان الطقس شديدَ الحرارة منذ الصباح، ولم يُفلح مكيِّف حجرة الاستقبال القديمُ والوحيدُ في التخفيف من حدَّته مع أنَّه يعمل في أقصى طاقته. وبدأت الكْريمة المثلَّجة التي اشتريتها ظهرًا تذوب وتسيل مع أنَّني لم أكد آكل نصفها، بينما راح الحبر الأزرق المستخدَمُ في ملء الاستمارات ينشُّ بسبب تعرُّقي. وفوق ذلك، كانت الحجرة مشمسة، فاضطُررتُ إلى نقل مكتبي وكرسيّي كلَّ ساعة حتى أبقى في الظلّ.

وبما أنَّ هذه الحجرة كانت مقرَّ الحارس في فترة سكن الشابَّات، فقد بقي فيها صندوقٌ يحتوي على المفاتيح، ولوحةِ المصابيح المعلَّقة بأجراس الإنذار، وميكرفونٍ مخصَّص للإذاعة داخل المبنى. وجميعها من الطراز القديم،

كتلك التي نجدها في أسواق السلع المستعمَلة.

كان الجوُّ قائظَ الحرارة فلم نستقبل إلَّا زيارةً واحدة، وتلقَّينا اتِّصالين هاتفيَّين فقط. وأيضًا، لم يكونا فائقَي الأهمِّيَّة، أحدهما من رجل متوسِّط العمر طلب منَّا قبل بضعة أيَّام حفظَ عيِّنة من حصاة بوليَّة ويرغب في دعوتي إلى العشاء، والآخرُ من امرأة اكتشفت شبحًا شرِّيرًا على زجاج باب المدخل وتقترح علينا أن نجعله يختفي. وبالتأكيد، صرفتُ الاثنين بكلِّ تهذيب. أمّا الزيارة فكانت من امرأة شابّة جميلة في الثلاثين من عمرها تقريبًا، تحمل إلينا مدوَّنةَ مقطوعة موسيقيَّة.

أحضرتُ لها كرسيًّا، فجلست ووضعت ساقًا فوق ساق، وأخرجت أوراقًا عديدة من حقيبتها، وسألت بهدوء:

ـ هل يمكن حفظ هذه؟

جذبت الأوراق نحوي. كان الورق عاجيَّ اللون، متينًا. وأجبتها:

ـ بالتأكيد، لا توجد مشكلة.

أزعجتني في البداية فكرةُ حفظ هذا النوع من الموادِّ اللَّاعضويَّة. فهنا، كانت نادرةً العيِّناتُ المألوفة، مثل عيِّنات الحشرات أو النباتات، ومعظمُ الناس يُحضرون لنا أشياء

نستطيع الاحتفاظ بها من دون أن نضطرّ إلى حفظها: حليّ الشعر، الصنّاجات، كبب الصوف، أزرار الأكمام، علب مساحيق التجميل، منظار المسرح، وما شابهها من أشياء.

أمَّا الآن، وقد اعتدتُ بالتدريج مدلولَ العيِّنات هنا، المختلفَ كثيرًا عن مدلولها في العالم الخارجيّ، فلم يعد يُدهشني شيءٌ إلَّا فيما ندر. ولو أحضروا لي عيِّنةَ مَنْيّ في دَورق لاستطعت أن أُجيب بالبساطة ذاتها وأنا أبتسم مثلما فعلت ذلك اليوم.

ـ سمعتُ عنكم من شخص قريب استعان بخدماتكم. يبدو أنَّه شعر براحة حقيقيَّة بعد أن طلب منكم عيِّنة.

ـ أجل، بالضبط. هنا مكان إنقاذ بواسطة العيِّنة.

«لكنَّ ما يُقلقني هو أنَّ المادَّة غريبة نوعًا ما،» قالت وهي تُشير إلى مدوَّنة المقطوعة الموسيقيَّة. ولمعت أظفارها المطليَّة. وبدت وجنتاها، ربَّما بسبب مستحضر التجميل، نضرتين وبيضاوين، حتى إنَّني نسيت حرارة الخارج. وكان الجزء العاري من ذراعيها، البارزُ من كمَّي قميصها، بضًّا هو أيضًا، ولم يكن يحمل أثرًا للتعرُّق.

ـ ليست غريبة إطلاقًا. اطمئنِّي. ستكون جاهزة في غضون يومين.

«سؤالي لا يتعلَّق بالمدوَّنة في حدِّ ذاتها، إنَّما بالموسيقى المكتوبة فيها، بالصوت،» قالت قبل أن تطأطئ رأسها.

كان فعلًا طلبًا مفاجئًا. سكتُّ لبرهة، وأنا أتلمَّس حافَّة المدوَّنة الموسيقيَّة بطرف إصبعي. وبما أنَّني لم أتعلَّم العزف على آلة موسيقيَّة، ولم أهتمَّ في حياتي بدروس الموسيقى، لذلك لم تتولَّد لديَّ أيُّ فكرة عن نوع الموسيقى الموجودة فيها. ولم أرَ على السلَّم الموسيقيِّ إلَّا إشاراتٍ على شكل دوّامة وعلاماتٍ لها أجنحةُ ملائكة.

وفقط، لأنَّها غير مطبوعة، وإنَّما مكتوبة بعناية بقلم حبر ذي رأس رفيع، افترضتُ أنَّها في غاية الأهمِّيَّة بالنسبة إليها.

«هل يمكن إجراء عيِّنة من الصوت؟» ردَّدت ذهنيًّا، مرَّاتٍ عديدةً، هذه الكلمةَ التي لم تعنِ لي شيئًا. لكنَّني خشيتُ أن أُقلقها إن بالغت في التفكير. ولم يكن هذا ضمن إطار مبدأ المخبَر. فقلت وأنا أحرص على ألَّا أدعها تكشف اضطرابي:

ـ هنا لا يوجد شيء لا نستطيع حفظه.

ـ آه، حقًّا؟

وابتسمت لي ابتسامة ارتياح.

ـ الذين يأتون لزيارتنا يظلُّون قلقين في البداية بشأن أشيائهم. هكذا هي الحال. فالعيِّنات موجودة هنا لتحجز قلقهم.

كرَّرتُ بأمانةٍ الكلماتِ التي علَّمني إيَّاها السيِّد ديشيمارو.

ـ ولكن يجب أن أستعير منك هذه المدوَّنةَ كأساس في تحضير العيِّنة. بالتأكيد، الجوهر هو الصوت. هل يمكنك أن تفارقيها حتى يستطيع أخصَّائيُّ العيِّنات الاستفادةَ منها

ـ أجل.

وهزَّت رأسها.

ـ إذًا، لحظة من فضلك، سأسجِّلها.

أخرجتُ استمارة من درج مكتبي، وملأتها قبل أن أسجِّل الرقم الخاصّ فوق المدوَّنة الموسيقيَّة. وهو 26 - F30774. ثم وضعت الإتيكيت اللّاصق على العيِّنة.

ـ ستكون جاهزة في غضون يومين ابتداءً من الظهيرة. ويجب أن تأتي شخصيًّا لتتعرَّفي إلى عيِّنتك. وعندئذ ستدفعين إلينا، وينتهي كلُّ شيء.

ـ هل لديك فكرة عن المبلغ الذي سأدفعه؟

ـ لا يمكنني أن أحدِّده بدقَّة الآن، لأنَّ أخصَّائيَّ العيِّنات هو من يحدِّده. لكنْ، لا بدَّ من أنَّه يعادل وجبة طعام كاملة لشخص واحد في مطعم فرنسيّ.

وجمعتُ أوراق المدوَّنة لأرتِّبها مع الاستمارة في الدُّرج.

«هذا أبسط ممَّا توقَّعت،» قالت وعيناها تحدِّقان في سطح المكتب الذي لم يعد فوقه شيءٌ.

ـ أجل، هذا بسيط.

وابتسمتُ لها.

بعد ذلك، ثرثرنا لفترة ونحن نحتسي شايًا مثلَّجًا مع كثير من قطع الثلج. فأسرَّت إليَّ حينئذ بمقتطفات من ذكرياتها المتعلِّقة بهذه المدوَّنة الموسيقيَّة. قالت:

ـ كان صديقي مؤلِّفًا موسيقيًّا. أهداني هذه المقطوعة في عيد ميلادي. إنَّها مرهَفة حتى ليشعر المرء بجسده مغلَّفًا بالمخمل. وفي عيد الميلاد، أهداني ألوانًا مائيَّة. وجلب لي، في إحدى رحلات أسفاره، حجرًا كريمًا على دبّوس قبَّعة. وبعد انفصالنا، أفرغتُ الألوان المائيَّة في المرحاض، ودفنتُ دبّوس القبَّعة، ولم يتبقَّ إلَّا الصوتُ الذي لم أستطع إزالته.

كانت قصَّة سخيفة، لكنَّها مؤلمة.

وبعد أن أنهتْ كلامها، شربتْ بقيَّة شايها المثلَّج، وشكرتني قبل أن تتوارى في أشعَّة الشمس الصيفيَّة.

عند الساعة الخامسة، كنت منهمكة في الترتيب عندما صعد السيِّد ديشيمارو من القبو.

«الجوُّ حارٌّ في الأعلى. يجب أن نطلب من الكهربائيّ فحص عمل المكيِّف،» قال وهو يجلس على زاوية طاولة المكتب ليأخذ موادَّ اليوم من الدُّرج. وسألني:

ـ هذا كلُّ شيء اليوم؟

ـ أجل. هذا طلب عيِّنة خاصّة بالموسيقى المكتوبة على هذه المدوَّنة.

ـ حسنًا. إذًا، سنطلب غدًا من السيِّدة في الغرفة 309 أن تعزفها على البيانو.

كانت سيِّدة الغرفة 309 إحدى السيِّدتين المسنَّتين الباقيتين منذ حقبة سكن الشابّات. وهي عازفة بيانو، ولديها بيانو جيِّدٌ.

كنتُ قلقة بشأن ردَّة فعله على طلب العيِّنة الصوتيَّة التي بدت لي مستحيلةَ التنفيذ، لكنَّه لم يكترث للأمر، فشعرت بشيء من الارتياح.

ـ أخبريني، ألديك متَّسَعٌ من الوقت اليوم؟ لديَّ ما أحدِّثك فيه.

وطفق ينظر إليَّ وهو يركل قائمة طاولة المكتب بضربات خفيفة بكعب حذائه. حين ينظر إليّ بهذه الطريقة وهو يحدِّق مباشرة في عينيّ، لا أعرف أين أُركِّز نظري. وظلّت

الكلمات، التي عزمت على قولها، عالقةً في حَنجرتي، وانتهت بِيَ الحال إلى الشعور بضِيق التنفُّس.

«أجل،» أجبته بصوت خافت.

طلب منِّي السيِّد ديشيمارو أن أتبعه فحسب، من دون أيِّ توضيح. اصطحبني إلى داخل صالة الحمّامات، في آخر الطابق الأرضيّ. كنت أعرف بوجودها، وأعلم بأنَّها تنتمي إلى حقبة سكن الفتيات الشابّات، لكن هذه أوَّل مرَّة أذهب إليها.

سحب الباب الزجاجيَّ الكامد، فانزلق بصعوبة، وانفتح بارتجاجات مُحْدثًا ضجيجًا.

«تفضَّلي،» قال لي، وهو يدعوني إلى الدخول.

لم يكن المكان خَرِبًا في الداخل مثلما ظننت. في غرفة الملابس، كان الميزان والخزائن المغلَقةُ بالمفتاح وسلالُ الخيزران، في حالة جيِّدة. أمَّا في قاعة الحمَّامات، فالمرايا والصنابير والبلاط الأزرق لم تزل نظيفة. شعرتُ بأنَّه يمكننا استخدامُه على الفور. ببساطة، كان قاع المغطس جافًّا، فبدا مغطًّى بطبقة من المسحوق الأبيض، وكانت رائحةٌ موحشة تعبق في المكان برمَّته.

جلسنا، أحدنا إلى جانب الآخر، على حرف المغطس.

وبفضل برودة البلاط والتيَّار الهوائيّ المتسرِّب من الكوَّة، كان الجوُّ ألطفَ من غرفة الاستقبال.

ـ هنا، مكانُ استراحتي السرِّيَّة. وهذه أوَّل مرَّة أدعو امرأة إليه.

كان لصوته صدًى لم ينفكَّ يتردَّد حتى السقف.

ـ يشرِّفني ذلك.

انطلق صوتي في إثره ليوافيَه في زاوية السقف.

ـ غالبًا ما آتي إلى هنا بعد العمل وأمكث من دون أن أفكِّر في شيء، لأنَّ تحضير العيِّنات منهِك عصبيًّا، كما تعرفين.

ـ هذا صحيح. إنَّه عمل في غاية الدقَّة.

ـ أخبريني، ألا تجدينه مكانًا مثاليًّا من أجل موعد؟ فنحن لا نزعج أحدًا، وهو نظيف. وبما أنَّه يُحدث صدًى، فنحن مضطرّان إلى التحدُّث بصوت خفيض، وإلى اقتراب واحدنا من الآخر أكثر.

ونفخ في أذني على سبيل المزاح، ففوجئت حتى بأنَّني كدت أقعُ على قفايَ في المغطس، فأمسكني بذراعيه ضاحكًا.

على جدران كلِّ جانب تتتالى، بفواصلَ منتظمة، الصنابيرُ

ومرشَّاتُ الاستحمام وحمّالات الصابون. أحصيت منها خمسةَ عشرَ. كانت جافَّةً وتوحي بزينة مبتكَرة أكثر من كونها تجهيزات صالة استحمام.

كان البلاط يغطِّي السطح كلَّه، وتتفاوت درجة لونه الغامق، بحسب الأمكنة، فيشكِّل عند النظر بإمعان إليه أشكالَ فراشات. كانت مدهشةً هذه الفراشاتُ في صالة استحمام، لكنَّ أناقة ألوانها ظلَّت على حالها، ولم تبهت إطلاقًا. كانت موضوعة في كلّ مكان تقريبًا: على فتحات تصريف المياه، وعلى الحواجز الفاصلة بين المغاطس، وإلى جانب جهاز التهوية.

«كم عمرك؟» سألني فجأة وهو يتوقَّف عن الضحك.

«واحد وعشرون عامًا،» أجبتُ.

ـ هذا يُزعجني منذ فترة، فأنا أجد أنَّ حذاءك لا يتلاءم مع عمرك.

نظرتُ إلى قدمَيَّ المتدلِّيتين في المغطس. كنت أنتعل حذاءً رخيص الثمن اشتريته من متجر القرية حين كنتُ أعمل في مصنع المشروبات الغازيَّة. كان من الجلد الاصطناعيِّ البنِّيِّ، وكعبُه كان مسطَّحًا، وباليًا.

ـ أجل، أنت محقٌّ، ليس أنيقًا للغاية.

ـ أفكِّر في ذلك كلَّما نظرتُ إلى قدميك. يُخيَّل إليّ أنَّ

نوعًا آخر من الأحذية سيناسبك أكثر.

ـ هل تعتقد ذلك؟

«بالتأكيد. اسمحي لي بأن أهديك حذاءً جديدًا،» قال بنبرة حازمة وهو يعطيني علبة تناولها من كيس ورقيّ، وضعه إلى جانبه.

رفعتُ غطاءها. كان في داخلها حذاءٌ من الجلد الأسود. حثَّني على إخراجه من العلبة. كان بسيطًا ومتقَنَ الصنع. انحناءةُ طرفه جميلةٌ، وشريطٌ أنيق أسودُ مثبَّتٌ على مشط القدم. والكعبان، بارتفاع خمسة سنتيمترات على الأقلِّ، رفيعان ومتينان.

ـ لماذا تقدِّم إليَّ هذا الحذاءَ الباهظَ الثمن؟

ـ مضى عامٌ على عملك في العيِّنات. واشتغل عندي العديدُ من الموظَّفات حتى الآن، لكنْ، ولا واحدة منهنَّ عملت بتفانٍ مثلَك. وهذا ساعدني كثيرًا. إنَّه عربون شكر لك. اخترته لأجلك، وأودُّ أن تنتعليه. ألم يعجبك؟

ـ بالعكس. لكنَّه أجمل من أن أنتعله أنا.

ـ فليكنْ. ألا تودِّين تجريبه؟

ونزل في المغطس لينتزع حذائيَ القديمَ.

أمسك ساقَيَّ بإحدى يديه لينتزع بالأخرى حذائيَ القديمَ

من كعبه. سحبه بسرعة من قدمَيَّ، ولم أشعر بشيء.

أصبحت قدماي الحافيتان في يديه. وراح يمسك ساقَيَّ بقوَّة حتى إنَّني لم أقوَ على التحرُّك. لم يعد في وسعي أن أفعل شيئًا، واكتفيت بالتحديق في حذائي القديم المرميِّ على الأرض، وفي مشطَيِ القدمين وهما يلامسان فواصِلَ البلاط. إحدى الفردتين سقطت على قفاها، والأخرى على جَنبها، فبدتا كأنَّهما جثَّتا عصفورين صغيرين منتوفَي الريش.

أخذ، بعد ذلك، يُلبسني فردة الحذاء الجديد في قدمي اليمنى. أمسك كعبي لتزلق قدمي بحركة واحدة حتى نهاية الحذاء. شعرت بأصابعه قاسيةً وباردة على كعبي، لكنَّ داخلَ الحذاء كان دافئًا ورطبًا. لم يكن هناك أيُّ وقت مستقطَع في حركة يديه، كأنَّه يقوم بطقس مخدَّد سلفًا، حتى إنَّني لم أقوَ على تحريك إصبعي الصغيرة.

أذهلني أنَّ هذا الحذاء الجديد يناسبني تمامًا. فهو يغلِّف قدمَيَّ برفق، ومن دون أيّ ضغط أو إكراه.

«إنَّه يناسبني مثل قفّاز،» قلت.

لم يُجب، ولم يبدُ عازمًا على إفلاتي. راح يمسِّد أعلى الحذاء، ويعقد الشريط.

ـ أُقسم بأنَّه مفصَّل على المقاس. كيف عرفتَ نمرة قدمي؟

ـ أنا عالِم طبيعة، تذكَّري ذلك. يكفيني أن أرى قدمًا لأعرف مقاسها.

أفلتني أخيرًا، واستطعت أن أُدير كاحلَيّ وأحرِّك طرفي قدمَيّ حتى أرى الأثر الذي أحدثه حذائي الجديد.

ـ حسنًا، يمكننا أن نرميَ الحذاء القديم.

التقط بيده الحذاء الملقى على الأرض واعتصره بقوَّة فسحقه. أصبح الآن عبارة عن كومة بلاستيك قديمة. حدث ذلك بسرعة فائقة، فلم يسنح لي الوقتُ لأتصرَّف.

«ألا تودِّين أن تمشي قليلًا لأراه؟» قال ووضعني في قاع المغطس، قبل أن يجلس على حافَّته، ثم أضاف: «حاولي أن تدوري دورتين أو ثلاثًا.»

رفعت بصري نحوه متردِّدةً، من دون أن أدري ماذا أفعل. وبما أنَّ حالتي تغيَّرت، لم تعد قاعة الحمّامات تولّد فيَّ الإحساسَ ذاته. كان حذاء الجلد الاصطناعيّ الذي سحقه لتوّه على مستوى نظري، ومن خلفه برزت الكوَّة بوضوح تضيئها الشمس الغاربة. أمّا ساقاه اللّتان كنت أجدهما عادةً نحيفتين في مئزره الأبيض، فقد بدتا لي عن كثب كبيرتين وقويَّتين. وبدأت قاعة الحمّامات تكفهرّ.

ـ هيَّا، بسرعة.

لم أجد سببًا لأرفض ما يطلبه منّي. ظننتُ أنَّ من الطبيعيّ والعاديّ أن أمشي لأشكره على تقديم هذا الحذاء إليّ، لكن ما بدا لي غريبًا هو أن يحدث ذلك داخل المغطس.

وبما أنَّه لم يبدُ مستعدًّا للانتظار إلى ما لا نهاية، تقدَّمتُ بحذر ودرتُ مع عقارب الساعة. أحدَثَ الكعبان قرقعةً متقطِّعة، ضخَّمها حجم قاعة الحمَّامات الصغيرُ.

إذا كان من العاديِّ جدًّا أن أمشي، فإنَّني استصعبت الأمر هنا. فالأرض لم تكن مستوية، وإنَّما تميل ميلًا خفيفًا نحو فتحة التصريف، وكعباي يعلَقان في تشقُّقات البلاط. وفوق ذلك، شعرت بأنَّني مترنِّحة وخرقاء بسبب نظرته التي لم تبارحني.

وما إن تلاشى الإحساس بالتوتُّر، حتى بدا مَرِنًا وخفيفًا. وفكَّرتُ في أنَّني لم أنتعل في حياتي حذاءً يناسبني إلى هذا الحدِّ.

مشيتُ وأنا أعدّ خطواتي، وعيناي على الشريطين، وتحاشيتُ التفكير في أيِّ شيء. درتُ أوَّل دورة بثلاث وعشرين خطوةً، ثم دورةً ثانية بضِعف الخُطوات السابقة تمامًا. وخلال هذا الوقت، مشيتُ أربع مرَّات فوق الفراشات.

«أتمنَّى بعد الآن أن تنتعليه كلّ يوم،» قال لي عند الخطوة الرابعة عشرة من الدورة الثالثة.

وافقتُ من دون أن أتفوَّه بشيء وأنا أتابع التقدُّم.

ـ وطوالَ الوقت، سواءٌ في القطار، أو العمل، أو في أثناء الاستراحات، وسواءٌ كنتُ أراكِ أو لا أراك. موافقة، أليس كذلك؟

ورفع ذراعه وألقى حذائي القديم أرضًا. مزَّق الضجيجُ الهواءَ عند قدمي، بينما لم تكن حركته عنيفة إطلاقًا، ورسمت ذراعه في مئزره الأبيض قوسًا جميلًا. خلتُ أنَّ هذا الضجيج هو إشارة تُنبئني بأنَّني يجب أن أواصل المشي. وراح قاع المغطس يمتلئ بالظلام.

3

في اليوم التالي، تحوَّلت الشقَّة، رقم 309، إلى قاعة موسيقى.

حين عرضنا أنا والسيِّد ديشيمارو المدوَّنةَ على السيِّدة التي تقطن هذه الشقَّة، وسألناها إن كان في وسعها أن تعزفها على البيانو، تردَّدت في البداية.

«أنا لم ألمس البيانو منذ بعض الوقت. لا أدري هل يمكن لأصابعي أن تتحرَّك،» تمتمت وهي تثنيها وتشدّها بالتناوب.

«من فضلك. نحن في حاجة ماسّة إلى مساعدتك من أجل العيِّنة،» قال السيِّد ديشيمارو.

كانت سيِّدة الشقَّة 309، الهزيلةُ تمامًا، وذاتُ الشعر

الناصع البياض كالثلج، ترتدي ثوبًا خفيفًا نيليَّ اللون. أصابعها تغضَّنت تمامًا، لكنَّها احتفظت بهيئة أصابع عازفة بيانو قديمة، بمظهرها الأنيق، وشكل أظافرها ومرونة مفاصلها.

انتهت إلى القبول، لكنَّها أرادت أن تتهيَّأ قبل العزف.

كانت الشقَّة ذات الرقم 309 شقَّةً نموذجيَّة في سكن الشابّات، مؤلَّفةً من حُجرة مساحتها عشرة أمتار مربَّعة مع ركن مطبخ، وسرير ومغسلة وأثاث مرتَّب. ببساطة، كان البيانو يشغل المكان كلَّه تقريبًا، والباقي يُخفيه ظلُّه الضخم.

وفقًا لادِّعاءاتها، كانت جميع أنواع الأدوات غير المتجانسة موضوعةً فوقه: حمَّالة أقلام الرصاص؛ المنبِّه؛ علبة السكاكر؛ صندوق الحليّ مع آلة صندوق الموسيقى؛ غطاء إبريق الشاي المحبوك يدويًا؛ صور قديمة؛ ميقاتيَّة موسيقيَّة. ولا يمكن فتح غطائه بسهولة. يجب رفع كلّ هذا أوَّلًا.

لم نعرف أين نضعها لأنَّه لا يوجد متَّسَعٌ من المكان، فقرَّرنا أخيرًا أن نضعها فوق السرير أو على الأرض. نقلنا كلّ شيء بعناية قبل أن نمسح الغبار بخرقة خاصَّة بالبيانو أعارتنا إيَّاها السيِّدة العجوز. سحبنا الكرسيَّ من ركنه الذي لم يعد يُستخدَم عمليًّا إلَّا كمستودع ثياب، ووضعنا عليه

وسادةً قبل أن ننقله إلى أمام البيانو. وفي تلك الأثناء، راحتْ تقرأ المدوَّنةَ في المطبخ.

حين بدأتِ العزف، دَعَوْنا المقيمة الأخرى، سيِّدةَ الشقَّة 223. كانت سيِّدةً جميلة، عاملةَ مقسم هاتف قديمة تمكث في شقَّتها بشكل دائم، وتهتمّ بالأشغال اليدويَّة المتنوِّعة.

وضع السيِّد ديشيمارو حامل العيِّنة على طرف البيانو، ووضع فيه أنبوبًا فارغًا، وكبيرًا بما يكفي. لم تكن الحجرة كبيرة فحسب، وإنَّما أيضًا مملوءة، فاضطرَّ كلٌّ واحد منَّا إلى أن يتدبَّر أمره ليجد مكانًا يجلس فيه. اتَّخذتْ سيِّدة الشقَّة 223 مكانًا بين المروحة وطاولة الزينة، واتَّكأ السيِّد ديشيمارو على رفِّ خزانة، وجلستُ أنا على زاوية السرير محاذرة ألَّا أُسقط علبة السكاكر وصندوق الحليِّ الموجودَين فوقه.

انحنت أوَّلًا سيِّدة الشقَّة 309 احترامًا قبل أن تفتح المدوَّنة، وتتناولَ نظَّارتها من جيب فستانها وتضعَها فوق أنفها. وبعد أن نظرت إلى مَلامس البيانو لبعض الوقت، قرَّبت أصابعها منها ببطء.

كانت مقطوعة مضحكة. قالت الزبونة إنَّها مقطوعة مرهَفة كالمخمل، ولكنَّني وجدتها أكثر تعقيدًا وخشونة. فاللَّحن يتقافز قفزات لا تصدَّق، وتتكرَّر الجملة نفسها إلى حدٍّ يبعث على النوم، ويتغيَّر الزمنُ الموسيقيُّ فجأة بطريقة غير متوقَّعة.

كنت أشعر بأنَّه يكفي حدوث أيّ شيء حتى يتشتَّت الكلّ، ولكنَّه نجح في المحافظة على توازنه بصعوبة.

تابعتِ العزفَ من دون أن تُخطئَ، لكنّ أصابعها كانت تتشنّج على المَلامس الملساء، وبدت عيناها اللتان تفكّان رموز المدوَّنة مجهَدتين من المتابعة. لم نعرف إن كان تقلُّبُ الصوت ناجمًا عن المقطوعة ذاتها أم عن ضعف الأداء. ولكنَّ كليهما لم يكن مهمًّا للعيِّنة.

بدت السيِّدة 223 ضَجِرةً بشكل واضح، وأمضت وقتها مرَّةً في الضرب على الأرض بدبّوس شعر كان قد تدحرج تحت طاولة الزينة، ومرَّةً في تغيير اتِّجاه المروحة.

ولم يُظهر السيِّد ديشيمارو اهتمامًا خاصًّا بالموسيقى التي يسمعها، فظلَّ ساكنًا، عاقدًا ذراعيه، شاردَ النظر.

لم تكن تفصل بينه وبين ساقيَّ المتدلِّيتين من السرير سوى عشرات السنتيمترات. وكان في وسعي أن أشعر بأنفاسه على قدمَيّ. فالحذاء الذي قدَّمه إليَّ بالأمس بقي في المدخل، ورحت ألقي عليه نظرة من حين إلى آخر.

لم يزل الجوُّ حارًّا. أمَّا في الخارج، فكان رائعًا. وطفق تيَّار هوائيّ خفيف يدخل من الشرفة، ويحرِّك فقط الشعر الخفيف الأبيض على قذال السيِّدة العجوز.

توقَّفت المقطوعة فجأة، من دون سابق إنذار. نهضت السيِّدة العجوز 309، وحيَّتنا مرَّة أخرى أيضًا، فصفَّقنا لها بهدوء.

صنع السيِّد ديشيمارو لفافة من المدوَّنة وحبسها في الأنبوب قبل أن يغلقه بسِدادة فلِّين، ثم وضع لصاقَةً ورقيَّةً على السِّدادة تحمل الرقم F30774 - 26، وصارت العيِّنة الصوتيَّة التي طلبتها الزبونة جاهزة.

وكما طلب منِّي السيِّد ديشيمارو، رحتُ أنتعل حذائي الجلديَّ الأسود في جميع الأيَّام للمجيء إلى المخبَر. بدا لي متنافرًا بعض الشيء مع ملابسي الصيفيَّة ذات الألوان الزاهية. وحتى لا أنكث بوعدي الذي قطعته له في قاعة الحمّامات، لم أستطع تجنُّب الحلَّة الغريبة التي شكَّلها مع فستاني الكتَّانيِّ الأبيض.

حين أنتعل الحذاء صباحًا، أتذكَّر ضغط أصابعه على ساقَيّ. كان إحساسًا غريبًا، ليس مؤلمًا حقيقة، لكنَّه يُعيقني.

كان الحذاء خفيفًا، وثمَّة متعة في انتعاله. ولكنْ كان يحدث لي أحيانًا أن أشعر، لبرهة من الزمن، بأنَّ قدمَيَّ امتُصَّتا تمامًا. وفي تلك اللحظة، يعتريني إحساس بأنَّ السيِّد ديشيمارو يحتضن ساقيَّ بين ذارعيه بقوَّة.

وابتداءً من ذلك اليوم، اعتدنا أن نلتقي بانتظام في قاعة

الحمّامات. لم تكن مواعيدَ بمعنى الكلمة، فقد تخلَّلها الكثيرُ من الأشياء الغريبة، ولكنَّ المؤكَّد أنَّ السيِّد ديشيمارو كان يرغب فيَّ، وكنت أشعر بذلك.

في البداية، أحببتُ حبًّا جمًّا «جوَّ» قاعة الحمّامات. مثلًا، المشيُ يدًا بيد في هذا الهواء الساكن والبارد، من دون أن يُزعجنا أحد؛ شعورُنا بأنَّنا، نحن الاثنين، نتنفَّس، بينما كلُّ شيء نائمٌ: الصنابير، مرشّات الاستحمام، المكيِّف والمغاسل؛ إحساسُنا بأنَّ أقلَّ ضجَّة، وأخفضَ صوت، يتردَّد صداهما على الجدران إلى ما لا نهاية.

عمومًا، كنَّا نثرثر جالسَين على حرف المغطس. وفي حين كنَّا نتحدَّث، كان لون السماء يتغيَّر بالتدريج في الجهة الأخرى من الكوَّة، ويُخْلي مكانه للَّيل. وحينها، يرفع ذراع لوحة التحكُّم ليُشعل الضوء.

وما إن تُنير الكهرباءُ المصابيحَ، حتى تكشف قاعة الحمَّامات عن جوٍّ مختلف. فالنور البرتقاليُّ كان أضعفَ من أن يضيئها كلَّها، فتبقى الزوايا ظليلة، لكنَّ البلاط في أسفل المغطس يلمع. ويتبدَّى ظلُّ النباتات في الحديقة على الزجاج الكامد، متأرجحًا مع أيِّ نسمة ريح.

بادر قائلًا:

ـ أشعر بالغرابة حين أتخيَّل كيف كانت تُستخدم هذه

الحمَّامات قديمًا. كان كلّ شيء يختفي في الضباب، وتغطِّي قطراتٌ الزجاجَ ويعبق المغطس بالبخار، وتختلط فيه جميع أنواع الضجيج: ضحكات، مياه تسيل، علب صابون تسقط. وفتياتٌ شابّات، كثيراتٌ من الفتيات الشابَّات، يواظبن على الاستحمام، وهنّ مصطفّات أمام الصنابير. وجميعهنّ عاريات.

ـ ومن بينهنَّ، السيِّدتان 309 و223.

ـ أجل، لكنَّهما لم تكونا عجوزين كما هما الآن. لعلَّهما كانتا في مثل عمرك تقريبًا. إحداهما تغسل يديها بعناية، وتضع الكثير من الصابون، وتدلك أصابعها، واحدةً واحدة، حتى تغدو نظيفة تمامًا. والأخرى تدلك عنقها. فهي لم تتوقَّف عن التحدُّث عبر الهاتف طوال النهار، وقد بُحَّ صوتها، لذلك تدفِّئه تحت مِرَشَّة الماء.

ـ يصعب عليَّ تصديقُ أنَّ ذلك العصر قد وُجد.

ـ الآن، أصبح كلُّ شيء جافًّا تمامًا. لم تبقَ قطرة ماء واحدة، ولا أيُّ أثر للصابون. وتقدَّم العمر بأصابع عازفة البيانو وصوتِ عاملة المقسم، ولم يعد هناك سوانا.

أمسك بيدي، وأنزلني إلى المغطس، وجرَّدني من ملابسي. فكّ أزرار قميصي، واحدًا واحدًا، ابتداءً من الأعلى، قبل أن يفتح سحّاب تنُّورتي الفضفاضة. انتُزِع كلُّ

شيء عن جسدي كبتلات تذبل.

تحرَّكت أصابعه ببرود وإتقان. وعثر فورًا على الزرّ العلويِّ المتواري تحت الياقة، وكذلك السحّاب تحت ثنية تنُّورتي. وتساقطت ألبستي الداخليَّة الناعمة بالطريقة نفسها.

مضى قُدُمًا كأنَّ الخطوات محدَّدة سلفًا. كان يسيطر على الوضع تمامًا. ولم يكن لديَّ ما أفعله سوى المكوث ساكنةً، وأن أترصَّد صوت الأزرار أو السحّاب.

أَلْفَيْتُ نفسي عاريةً في النهاية، ولم يتبقَّ عليَّ إلَّا حذائي الجلديُّ الأسودُ.

لم أفهم لماذا لم ينتزعه. ولمَّا توقَّفتْ أصابعه، توقَّعتُ أن يفعل الشيء ذاتَه حين انتزع حذاء الجلد الاصطناعيّ البنِّيّ. لكنَّني انتظرتُ عبثًا، ولم تبدر منه أيُّ حركة تجاه حذائي.

في تلك الأثناء، أخذ البردُ يَسري ببطء في كتفَيَّ وجَذعي تحت الضوء البرتقاليّ. ووحدهما طرفا قدمَيّ، المغلَّفان بالجلد، ظلَّا دافئَين. اعتراني شعور بأنَّني شُطرتُ نصفين عند مستوى كاحلي. كان الشريط الأسود ساكنًا وسط مشط القدم.

بعد ذلك، تطارحنا الغرام في قاع المغطس.

«إنَّنا نرى النجوم،» قال.

شعرت بأنفاسه على شعري. ورأيت بضع نقاط مضيئة ترصِّع الكوَّة.

ـ هل سيكون الطقس حارًّا أيضًا غدًا؟

ـ بلا شكّ.

ـ حين يكون الطقس حارًّا لأيَّامٍ متتالية، لا يأتي الكثير من الزبائن.

ـ سيستأنف العمل وتيرته المعتادة حين يصبح الطقس أبردَ.

ـ حقًّا؟

ـ أجل. كلَّ عام يحدث الأمر ذاتُه. يتميَّز الصيف بالهدوء.

وتابعنا إلى حينٍ حديثًا متقطِّعًا.

كان يضمُّني بشدَّة إليه. لكنّ كلمة «ضمّ» قد لا تفي بالغرض. كنتُ محتارة، وغيرَ قادرة على فهم ما يكونه أحدنا بالنسبة إلى الآخر، لأنَّه لم يحدث لي من قبل ـ وخصوصًا في قاعة حمّامات فقدت وظيفتها ـ أن مارس أحدهم الحبَّ معي بهذه الطريقة.

لم أزَلْ أنتعل حذائي، وهو لمّا يزَلْ يرتدي مئزره الأبيض. وأصبحت ملابسي التي جرَّدني منها مكوَّمةً في زاوية المغطس. كنَّا متمدِّدَين على البلاط مباشرة، وسيقاننا متَّجهة نحو فتحة التصريف. وراح يضمُّني بين ذراعيه الطويلتين، ولكن ليس برِفق لنتذوَّق بشكل أفضل طعمَ إحساسنا بجسدينا، وإنَّما كان يخنقني كأنَّه أراد أن ينخرط بي تمامًا.

كنتُ محصورة بين البلاط والمئزر الأبيض. كان هذا مرهِقًا، لكنَّه محتمَل. رحت أُصيخ السمع وعيناي مغمَضتان، واستطعتُ أن أحسّ بالجوِّ المخيِّم على الحديقة الغارقة في الظلام.

«هل لديكِ شيءٌ تريدين حفظه؟» سألني فجأة.

كنَّا ملتصقَين، أحدنا بالآخر، ولم يكن في وسع أيٍّ منَّا أن يرى تعبير وجه الآخر. شعرتُ فقط بصوته يمرُّ قرب أذني.

«لا أدري،» أجبت.

وبعد ذلك، فكَّرت:

ـ في الواقع، ربَّما أجل، لكنَّني لا أعلم ما هو، إلَّا إذا لم أكن في حاجة إليه منذ البداية.

ـ لا يوجد أحد لا يحتاج إليه.

ـ هل تعتقد هذا؟

ـ ليس هنالك أُناسٌ كُثُرٌ يعثرون على المخبَر، لكن في الحقيقة، جميع الناس يحتاجون إلى عيِّنات.

ـ وأنا أيضًا؟ وحتى أنتَ؟

«أجل،» قال موافقًا.

رأيتُ أمام عينيّ بقعةً باهتة على صدر مئزره الأبيض، كانت تنبعث منها رائحةُ مستحضر كيميائيّ. وصوتي امتصَّه القماشُ تمامًا.

ـ حاولي أن تفكِّري فيما تحبِّين أن تجعلي منه عيِّنةً للحفظ. بالتأكيد يوجد شيء ما.

ضمَّني بقوَّة أشدَّ بين ذراعيه. كان حوضي ولوحُ كتفَيّ وربلتا ساقَيّ، ملتصقةً كلّها بالبلاط الخشن.

حاولتُ أن أفكِّر، كما طلبَ منِّي. ولمّا أغمضتُ عينَيّ، تراءتْ أمام ناظرَيَّ عيِّنةُ الفطور؛ أوَّلُ عيِّنة أراني إيَّاها، مع البِنصر المنعكسة على جدار الأنبوب الشفّاف.

ـ لنحاولْ أن نرى الأمور بطريقة أخرى. ما هي الذكرى الأكثر إيلامًا لكِ حتى الآن؟

فتحتُ عينَيّ.

ـ أكثر إيلامًا! حقًّا! مع أنَّني فكَّرت، لكن يبدو لي أنَّني لم أحتفظ بذكرى من هذا النوع. يمكنني أن أجد كومة من الأشياء البائسة الصغيرة، لكنَّني أعتقد أنَّني لم أواجه بعدُ مصيبةً حقيقيَّة.

ـ ألا يوجد فعلًا حالةٌ شعرتِ فيها بأنَّك مثيرة للشفقة؟

«مثيرة للشفقة! يا لها من كلمة مضحكة!» همستُ قبل أن أتنهَّد.

سمعنا صوت البيانو من بعيد. منذ حفلتها الموسيقيَّة المرتجَلة، عادت السيِّدة 309 بالتدريج إلى آلتها.

ـ أليس هناك فعلًا لحظةٌ شعرتِ فيها بالخجل؟

ـ ...

ـ لحظةٌ شعرتِ فيها بأنَّكِ مضحكة؟

ـ ...

كان صوته يمتزج بنغمات البيانو في تجويفَي أذنَيّ. وكان البلاط يؤلم ظهري، فأردتُ تغيير وضعيَّتي، لكنَّني لم أجد أيّ حيِّز بيننا يسمح لي بذلك. كانت ساقاي مختفيتين تحت مئزره الأبيض، وحذائي يلتصق، بشدَّة، بقدمَيّ.

ـ هيّا، فكِّري. اعثُري لي على الذكرى الأشدّ إرهاقًا لك. شيء ما مؤلم، مزعج، مروِّع.

كان صوته هادئًا، لكنّ كلماته باردة. كانت لديه مجموعة كاملة من هذا النوع من الكلمات. ولو أنَّني استمررت في السكوت، لَمَا استسلم.

«حين فقدتُ طرف بِنصري اليسرى،» تمتمتُ همسًا.

«وأين اختفى؟» سألني حين تلاشى صدى ردِّي الأخير.

ـ سقط في شراب الليمون.

ـ شراب الليمون؟

ـ أجل. عَلِقَ في آلة صنع المشروبات الغازيَّة.

ـ وماذا حدث بعد ذلك؟

ـ لا شيء. اكتفيتُ بالنظر إليه شاردةً وهو يسقط متأرجحًا ويلوِّن شراب الليمون بلون ورديّ.

ـ إذًا، لن تعود بِنصرُك أبدًا كما كانت، أليس كذلك؟

وافقتُه وأنا أسند خدِّي إلى مئزره الأبيض عند مستوى صدره.

لم يقل شيئًا زيادة. بقينا وقتًا طويلًا بلا حركة، وشعرتُ بأنَّني تحوَّلت إلى عيِّنة مندمجة فيه.

4

مكتبة
t.me/t_pdf

رحلتْ أشعَّة الشمس الصيفيَّة، وبدأتْ رياح الخريف تهبُّ، ولمَّا جاء أخيرًا فصلُ ارتداء الأحذية السوداء، أخذ عدد الزُّبُن يزداد تدريجيًّا، بالضبط كما قال السيِّد ديشيمارو. كان يظلُّ محبوسًا طوال النهار داخل المخبَر في القبو، ولم تعد تسنح لنا الفرصةُ ليرى أحدُنا الآخرَ إلَّا ما ندر، ما خلا لقاءاتنا مساءً في قاعة الحمّامات.

لم يفتأ عدد العيِّنات يزداد هو أيضًا، الأمر الذي دفعنا إلى إضافة القاعة رقم 303 في بداية الخريف، بعد أن كانت القاعات المخصَّصة للحفظ لحظةَ وصولي من الرقم 101 حتى الرقم 302، من دون القاعة 223 طبعًا. فتحنا في البداية النافذة لتهويتها ونفضنا الغبار قبل مسحها، ثم ثبَّتنا على الجدار الخزانةَ المفصَّلة خصِّيصًا بما يتناسب ومساحةَ

الحجرة، وأصبحت جاهزة. أنجزنا، كلانا، كلَّ شيء. سألته ونحن نعمل:

ـ أتساءل ما هو عدد الغرف الموجودة هنا.

«يصل عددها إلى 430،» أجابني وهو يشدّ أحد براغي الخزانة.

ـ ألن يتناقص عدد العيِّنات؟

ـ هذا مستحيل.

ـ ماذا سنفعل حين نستخدم جميع الغرف ولا يعود هناك متَّسَع من المكان؟

ـ هناك المكتبة. يمكننا أيضًا استخدامُ صالة الألعاب بعد أن نتخلَّص من منضدة كرة الطاولة، وكذلك قاعة الحمّامات.

ـ وحين نستخدم قاعة الحمّامات كصالة للحفظ، ماذا سيحلُّ بنا؟

«لا شيء على الإطلاق. لن يتغيَّر شيء. ثم إنَّ هناك مَواردَ هنا أكثرُ ممّا تتخيَّلين. لا تشغلي بالك،» قال لي قبل أن يشدَّ برغيًّا ثانيًا.

وفي أحد الصباحات الماطرة جاءت فتاة. كان شعرها الطويل معقودًا إلى الخلف، وترتدي فستانًا تقليديًّا. فتحت باب حجرة الاستقبال وهي قَلِقَةٌ من قطرات المطر المتساقطة

من أطراف مظلّتها، فقلتُ لها:

ـ صباح الخير. يمكنك أن تركني مظلَّتك على الجدار. نأسف لعدمِ وجود حمّالة مظلّات. اجلسي، أرجوك.

«آسفة لإزعاجك،» أجابتني بتهذيب قبل أن تجلس مقابلي.

مكثتْ صامتة لبرهة وجيزة، منكِّسةً رأسَها. كانت قطرات مطر تلمع في مكان عقد شعرها، وراحت تشبك وتحلّ يديها الموضوعتين على ركبتيها بعصبيّة.

ـ سأُعِدّ شرابًا ساخنًا، هل يناسبك؟

ذهبتُ إلى صدر المطبخ لأسخِّن عصير الليمون المُعَدَّ مسبَّقًا في البرَّاد، وقدَّمته إليها مع البندق المغطَّس بالشوكولاتة. المطبخ صغير، لكنَّه يحتوي على كلّ أنواع المشروبات والحلويات لتلبية رغبات الزُّبُن. وكان من ضمن عملي أيضًا أن أعرف من مجرَّد النظر إلى الزبون ما يمكن أن يعجبه. الشيء الوحيد غير المتوفِّر لديّ هو عصيرُ البرتقال.

ـ أشكرك.

احتضنتْ كأسها براحتَي يديها، وقرَّبتْ شفتيها بحذر.

«في الواقع، ليست أوَّل مرَّة آتي فيها إلى هنا،» باحتْ لي بعد أن شربت رشفة من عصير اللّيمون.

ـ إذًا، جئتِ لرؤية عيِّنتك، أليس كذلك؟

«لا،» أجابتني وهي تهزُّ رأسها.

في تلك اللحظة، شعرتُ فجأة بأنَّ شيئًا ما علِق ببصري، ليس بطريقة مزعجة، بل برصانة، كأنَّ هذا الشيء كان يتردَّد في استبقائي. طرفت عيني مرَّتين أو ثلاث مرَّات.

كانت توجد ندبة حرق على وجنتها. لكنَّها لم تكن ذات أهمِّيَّة. ندبة خفيفة، لا تكاد تُرى، كأنَّ بشرتها مغطَّاة بقطعة قماش مخرَّمة. شعرتُ بأنَّني أرى بياض وجنتها بوضوح.

ـ هل يمكن طلب عيِّنتين لشخص واحد؟

وعلى الفور تبيَّنتُ أنَّني في حضرة المرأة الشابَّة التي طلبت عيِّنة الفطر؛ تلك التي عرضها عليَّ السيِّد ديشيمارو في البداية.

«حضَّرْتُ عيِّنة هنا، منذ نحو عام،» قالت وهي تخفض عينيها نحو الإناء الزجاجيّ الذي يحتوي على البندق المغطَّس بالشوكولاتة.

«وتريدين تحضير عيِّنة جديدة، أليس كذلك؟» تابعتُ وعيناي تحدِّقان في ندبة حرقها.

ـ أجل، لكن إن كان هذا غيرَ ممكن، فلا أهمِّيَّةَ لذلك. أودُّ فقط أن أعرف إن كانت الحالة واردة.

ـ في الحقيقة، لا أعرف بالضبط لأنَّه لم يمضِ وقت

طويل على وجودي هنا، لكن يكفيني أن أطّلع على المِلَفّات. إنَّني واثقة بأنَّ هذا حدث سابقًا. وحتى لو لم يحدث، فلا تقلقي. ليس لدينا أيُّ سبب لرفض طلبك. لا يوجد نظام داخليّ. ويمكننا أن نفعل ما نشاء في نطاق المختبَر.

«آه، هذا جيِّد،» هتفت فَرَحًا لأوَّل مرَّة بصوت واضح لفتاة صغيرة قبل أن تشرب رشفة ثانية من عصير الليمون.

ـ ألستِ أنتِ مَن سبق لك أن طلبتِ كعيِّنة الفُطُورَ الثلاثة؟

«أجل، إنَّها أنا،» أجابتني.

ـ حدَّثني قلبي بذلك. أتذكَّر بوضوح. إنَّها أوَّل عيِّنة رأيتها عند وصولي إلى هنا. كانت تلمع في سائل الحفظ، وتتحرَّك كأنَّها في قيد الحياة. هل تعرفين أنَّها كانت جميلة جدًّا؟ نحتفظ بها دائمًا في الحجرة 302. إنَّها في حالة ممتازة. كلّ صفيحة فيها في حالة جيِّدة، وكلّ بَوْغ فيها سليم. هل تريدين أن أحضرها لك؟

«لا،» وتركت عصير الليمون لتُشير إليَّ بأن أبقى جالسة، بينما كنتُ أهمُّ بالنهوض. وتابعت: «لا حاجة إلى الفطور.»

لم تبدُ مهتمَّة على الإطلاق بعيِّنتها.

كانت السماء لا تزال تُمطر. وقد أحدثت مظلَّتُها بركةً

صغيرة على الأرض. بدت لطيفة بالكلاب الصغيرة المطبوعة على سطحها الخارجيّ وقبضتها الحمراء. وسُمِع صوت صفّارة إنذار من بعيد، لكنَّه سرعان ما اختفى.

سعلتُ سعالًا خفيفًا، ثم دفعتُ نحوها البندق المغطَّس بالشوكولاتة لأقدِّمه إليها. استقرَّت نظرتها لبرهة في الأعلى، قبل أن تنظر إلى الإناء الزجاجيّ، لكن لم تبدر منها أيُّ حركة لتأخذ شيئًا منه. كان نور السقف يُضيء الندبة على وجنتها.

ـ في كلّ حال، يسرُّنا في المخبَر أن تطلبي خدماتنا مرَّةً ثانية. هذا دليل على أنَّ عيِّناتنا أعجبتك.

وافقتْ بهيئة غامضة، فاستفسرتُ:

ـ والآن، ما العيِّنة الجديدة التي ترغبين في أن تطلبيها منَّا؟

مكثت صامتة لبرهة، ورأسها لم يزل منكَّسًا، وهي تداعب طرف شعرها المعقود. لم نكن نسمع إلَّا وَقعَ المطر. انتظرتُ بفارغ الصبر. قالت بصوت صافٍ:

ـ هذا الحرق.

كرَّرتُ الكلمة في سرِّي كتعويذة:

«حرق، حرق، حرق، حرق...».

راح صوتها يتصادى إلى ما لا نهاية، متلاشيًا في زجل المطر.

وحتى لا يزعجها شعرها المعقود، أسدلته على كتفها المقابلة لوجنتها المحروقة قبل أن تُريَني مظهرها الجانبيَّ. بدت وجنتها أكثرَ احمرارًا من قبل، وهو ما جعل أثر الندبة يَبرز بوضوح أكبرَ. كان في مقدوري أن أرى عبرها كلَّ وريد صغير. لم يكن لأذنيها وعينيها وشفتيها من السحر كما سحرُ هذه الوجنة. رغبتُ في أن أداعبها بأطراف أصابعي، لكنَّني تمالكت نفسي مطلقةً تنهيدةً قصيرة.

في النهاية، لم أعد أدري ماذا أفعل، فذهبت أبحث عن السيِّد ديشيمارو في القبو.

«أشكركِ لأنَّك تحدَّيتِ المطر حتى تأتي،» أعلن ويداه غائصتان في جيبَي مئزره الأبيض، متَّكئًا على الخزانة التي تعود إلى حقبة حجرة الحارس. ابتسمتْ بطرفَي شفتيها.

على الرَّغم من وصول السيِّد ديشيمارو، فإنَّ أيّ تغيير لم يطرأ على وضعيَّتها. بدت متوتِّرة، ولكن بلا وَجَل، وحافظت بهدوء على عينيها مركِّزتين نظرَهما في وعاء البندق المغطَّس بالشوكولاتة. بدا لي أنَّها تعرف الزاوية المناسبة لوضعيَّتها حتى تُظْهِرَ له الندبةَ على وجنتها.

ـ أودُّ أن أتحقَّق مرَّة أخرى إن كانت هذه العيِّنة من ندبة

حرقك هي التي ترغبين فيها، أليست هي؟

أخرج يده من جيبه ومدَّها نحو وجنتها. كانت ثمَّة مسافة بينهما، لكنَّ حركته كانت في غاية الرقَّة، ومفعَمةً بالحنان، حتى خلتُ أنَّه كان يداعب ندبتها برزانة.

ـ أجل إنَّها هي.

لم تزل على الوضعيَّة نفسها.

ـ ثمَّة مشكلة مهمَّة. تحضير عيِّنة وشفاء الحرق أمران مختلفان تمامًا. هل تدركين ذلك؟

ـ بالتأكيد. لا أظنّ أنَّ طلبي للعيِّنة سيجعل ندبتي تختفي. بفضل تجربة الفطر، أعتقد أنَّني صرتُ أعرف أكثر من الناس العاديِّين عن العمليَّة. أريد عيِّنة، ولا شيء آخر.

«موافق. ضمن هذه الشروط، يمكنني قبول طلبك. في أيِّ حال، هنا مخبَر للعيِّنات،» قال السيِّد ديشيمارو. وأعادتْ بارتياح شعرها إلى مكانه.

كان تعريفه للمخبَر يختلف اختلافًا طفيفًا، بحسب الزبون والموضوع، ولكنَّ الهدف هو دومًا طمأنةُ الزبون. ليس فيه شططٌ ولا شحٌّ، وإنَّما صيغ بهدوء، ناهيكم عن شيء من التعاطف.

ـ في هذه الحالة، تكرَّمي بمرافقتي إلى المخبَر.

ووضع ذراعه حول كتفيها كأنَّه يحتضن شيئًا نفيسًا

وهشًّا، وأرغمها على النهوض، فانصاعت له.

«هل ستذهبان. . . إلى المختبَر؟» تمتمتُ بصوت هامس، فلم يَحَرْ جوابًا. لم أكن قد زرت القبو بعدُ. ولم أكن أعرف ماذا يوجد خلف باب السنديان الثقيل في نهاية الممرّ.

«اهتمِّي أنت بمَلء الاستمارة وطباعةِ اللُّصاقَةُ،» قال ببرود، وهو يلتفت قرب المَخرج.

شيَّعتهما بناظرَيَّ وهما يتقدَّمان في الممرِّ، حتى اختفيا وراء باب السنديان. لم أرَ سوى ذراعه البيضاء تطوِّق كتفيها وتغطِّي كلَّ شيء: شعرها وظهرها وقذالها. أسندتْ وجنتها الموسومة إلى صدره، وراحا يمشيان معًا ببطء.

طفقتُ أتساءل إن كانت هيئته بهذا اللطف حين ألبسني الحذاء في قاعة الحمّامات. خبطتُ على الأرض بمشطَي قدمَيّ وأنا أتذكَّر أصابعه على ساقَيّ. ثم تخيَّلتها تروح وتجيء باستغراق على ندبة وجنتها.

انغلق باب السنديان مُصْدرًا صريرًا. وعلى المكتب، ساخت شوكولاتة البندق.

عندما حلَّ الليل، كانت السماء لا تزال تمطر، بوتيرة مطر النهار ذاتها. واستمرَّ هطول المطر بالإيقاع نفسه وبدقَّة ميقاتيّة.

وفي انتظار زيارة زُبُن محتمَلين، لم أنفكَّ أتساءل متى ستخرج المرأة ذات الحرق من المخبَر. أزحتُ مقعدي لأرى الممرَّ بشكل أفضل، واستدرتُ نحو باب السنديان لأصيخ السمع.

في تلك الأثناء، جاء العديد من الزُّبُن. شابٌّ وسيم معه سكِّينٌ مَطْوِيٌّ، صناعة ألمانيَّة؛ امرأة متبرِّجة بالمساحيق تبرُّجًا صارخًا ومعها بقايا عطر في علبة أقراص؛ رجلٌ عجوز ومعه عظام عصفور جاوة.

لا بدَّ من أنَّني كنت مشتَّتة، لأنَّني ارتكبت حماقات عدَّة. أسقطتُ غطاء علبة الأقراص، ووقعتُ في أخطاء طباعيّة، وسكبت القهوة على الاستمارات. لكنَّ الزُّبُن حافظوا على ابتساماتهم، وعذروني بلطف.

كان الرجل العجوز آخرَ الواصلين، يرتدي بزَّة عمل رماديَّةً، ويحمل في يده كيس قماش ليس نظيفًا. قلب الكيس وهو يجلس من دون أن يقول شيئًا، وبعثر محتوياته على طاولة المكتب. فسألتُ:

ـ ما هذا؟

«عظام عصفور جاوة،» أجابني بصوت مبحوح، وأضاف: «عشنا معًا ما يقارب عشر سنوات ونَفَقَ أوَّلَ أمس بسبب التقدُّم في السنّ. هذه هي الحياة. ليس في اليد حيلةٌ.

أحرقتُ جثَّته، وبقيت العظام.»

وأشار إلى سطح المكتب بسبّابته المكتنزة والمتَّسخة تمامًا.

كانت العظام البيضاء والرقيقة جميلةً. وجميعها مختلفة بانحناءاتها الطفيفة، وأطرافها المدبَّبة. وبواسطة سلسلة، كان يمكن صنع قلادة جميلة منها. أمسكت واحدة منها لأراها. كانت فائقة الخفَّة، مع نتوءات دقيقة.

ـ إذًا، هل تتكرَّمون بتحضير عيِّنة منها؟

وأخرج منديلًا من جيبه ليمسح قطرات المطر عن جبينه وشعره.

ـ أجل، بالتأكيد.

ـ شكرًا جزيلًا. كنت أريد دفنها، لكنَّني أعيش في شقَّة وليس لديَّ حديقة. أمّا بالنسبة إلى رميها في البحر، فهذا يلائم نورسًا أو طائرًا بحريًّا. لكنْ، كما ترين، الأمر يتعلَّق بعصفور جاوة. هذا مؤسف، أليس كذلك؟ بذلتُ ما في وسعي لإيصالها إلى هنا. إذا استطعتم تحضير عيِّنة منها، فيمكنه أن يرقد بسلام أخيرًا.

وبينما كان يتكلَّم، لم أنسَ أن أختلس نظرات إلى الممرِّ عبر زجاج النافذة.

«عجبًا، يا آنسة، تنتعلين حذاءً رائعًا،» لاحظ وهو يلوِّح بمنديله.

ـ حقًّا؟

نظرتُ إلى قدمَيَّ، وقد بلبلتني، إلى حدٍّ ما، هذه القصَّةُ المفاجِئة للحذاء.

ـ في هذا الزمن، من الصعب إيجاد مثله. إنَّه لامع، بلا تأنُّق، ويبدو متينًا للغاية. لكنَّ الأهمّ هو أنَّه يناسب قدميك تمامًا. كأنَّكِ وُلدتِ معه.

ـ أنتَ تعرف أشياء كثيرة عن الأحذية.

ـ يمكنكِ قولُ ذلك. منذ خمسين عامًا أمارس مهنة ماسح الأحذية، تكفيني نظرة لأعرف مادَّته وسعره وعصره وصانعه وكلَّ شيء. أمّا هذا الحذاء، فهو شيء آخر. إنَّه من نوع لم أصادفه عمليًّا على الإطلاق خلال خمسين عامًا.

دعَكَ الرجل العجوز كيسَ القماش والمنديل معًا قبل أن يدسَّهما في جيبه.

ـ سأقدِّم إليكِ نصيحة: مع أنَّه مريح جدًّا، لا أظنّ أنَّ من المستحسن انتعالَه طوالَ الوقت.

ـ لماذا؟

ـ لأنَّه يلائم قدميك تمامًا. يكاد يثير الرهبة. لا يوجد أيُّ خلل. ألا ترين أنَّه لا توجد عمليًّا أيُّ مسافة بين قدمك

والحذاء؟ وهذا دليل على أنَّه يستحوذ على قدميك.

ـ يستحوذ؟

ـ أجل، بالضبط. من النادر العثور على حذاء مثله. يستولي على قدميك. حدث لي مرَّة واحدة، منذ اثنين وأربعين عامًا، أن لمَّعتُ حذاءً من النوع نفسه. لذلك عرفته. لا تأخذي الأمر على محمل السُّوء. من الأفضل ألَّا تنتعليه أكثر من مرَّة في الأسبوع. وإلَّا فإنَّك تجازفين يا آنسة بفقدان قدميك.

تدحرجت عظام عصفور جاوة على سطح المكتب.

«من هو الشخص الذي كان ينتعل هذا الحذاء منذ اثنين وأربعين عامًا؟» سألته.

ـ جنديّ، كان الأمر يتعلَّق بقدمه اليمنى.

أحدثت العظام صوتًا جافًّا وهي تتدحرج. وراح حبل الكيس الذي يبرز من جيبه يتأرجح. أخذتُ أركل ركلًا خفيفًا الشريطَ الأسود بطرف قدمي.

ـ أخيرًا، ربَّما أتدخَّل فيما لا يعنيني: انسَي ما قلته لك منذ قليل. يجب أن أهتمّ بأقدام الناس دومًا بردّة فعل مهنيّة. لكن إن شئتِ، فسيسعدني جدًّا أن أمسح حذاءك يومًا ما. أقف تحت ممرّ مشاة المجمّع الثالث من الجادَّة. سأستخدم ورنيشًا خاصًّا. سترين كيف سيلمع.

ونهض. قلتُ له:

ـ أشكركَ.

ـ لا شكر على واجب. أعتمد عليكِ بشأن العيِّنة.

ـ أجل، يمكنك أن تثق بنا.

ـ إذًا، إلى اللقاء قريبًا.

خرج ملوِّحًا بيده. ولم يترك وراءه سوى رائحة ورنيش أحذية خفيفة.

دقَّت الساعة الخامسة بُعَيْدَ رحيله بقليل. كان باب المخبَر لا يزال ساكنًا. أغلقتُ غرفة الاستقبال، وخرجتُ إلى الممرّ، وأصختُ السمع، لكنَّني لم ألتقط إلَّا طقطقةَ المطر.

وقفتُ أمام الباب الذي لم أفتحه في حياتي، ووضعتُ يدي على المقبض، ولكنَّه لم يبدُ عازمًا على أن يدور. بدا مغلقًا بقُفل مزدوج. ولم يكن أمامي إلَّا إلصاقُ أذني على الباب، وإغماضُ عينَيَّ.

في الجهة الأخرى، ساد سكون غابة عميقٌ. كان كلُّ شيء صامتًا. وحده الهدوء يزوبع. أصغيت لفترة مديدة إلى ضوضائه. وعلى الرَّغم من طول الانتظار، فإنَّه لم يحدث شيء.

5

منذ ذلك الحين، لم أرَ ثانية الفتاةَ ذات الحرق. يومذاك، انتظرتُ أمام الباب حتى توقَّف المطر، وظهر القمر بدرًا، لكن لم تظهر الفتاة ولا السيِّد ديشيمارو.

حين وصلتُ في صباح اليوم التالي، كان السيِّد ديشيمارو كالعادة في مكتب الاستقبال يلقي نظرة على الاستمارات وهو يحتسي قهوته. لم يتغيَّر شيء. حيَّيته، فردَّ ملوِّحًا بيده. ثم غسل فنجانه في المطبخ، وتقدَّم بهدوء في الممرِّ الطويل، واختفى في الجهة الأخرى من باب المخبَر. لم يتفوَّه بكلمة عن الفتاة الشابَّة.

أدركتُ فجأة أنَّ المظلَّة المزخرَفة برسوم الكلاب الصغيرة اختفت. وقد جفَّ مكانها على الأرض تمامًا.

بعد أسبوع، استفدتُ من ثغرة في جدول دوامي وقمتُ بجولة على كلِّ الغرف بحثًا عن عيِّنة الحرق.

بدأتُ بالغرفة رقم 303. ولأنَّها استُخدمت منذ وقت قصير قاعةً للحفظ، لم تكن تحوي بعدُ الكثيرَ من العيِّنات. وحده الدُّرج الخامس من الخزانة التي تشغل المكان كان مملوءًا. ولذلك لم أستغرق وقتًا طويلًا لأُدرِكَ أنَّ عيِّنة الحرق ليست موجودة.

كانت الأدراج المزوَّدة بمقبض صغير مؤلَّف من كرة زجاجيَّة تتتالى بفواصل منتظمة. وكانت أنابيب الاختبار التي لم تدخل في هذه الأدراج مُوْدَعة في خزانة أخرى معلَّقة على حائط في زاوية المطبخ.

سحبتُ مقبضَ آخر دُرج اعتقدتُ أنَّه استخدمه. وجدتُ فيه عيِّنة عظام عصفور جاوة. كانت تعوم في سائل الحفظ. أغلقته بهدوء.

فتحتُ جميع أدراج الحجرة 303، لكنَّني لم أجد أثرًا للحرق، فقرَّرتُ من باب الحيطة أن أتحقَّق من قاعات الحفظ الأقدم.

كلَّما تقدَّمتُ في الحُجُرات بترتيبها التنازليّ، أصبحتْ مقابض الأدراج ولصاقاتُ أنابيب الاختبار والعيِّناتُ والجوُّ السائد فيها، قديمةً. وأنا أمشي بين الخزائن، انتابني إحساس

بأنَّ الزمن المتراكم يرتفع تحت خطواتي مزوبعًا كالغبار.

ولأنَّ الخزائن تسدُّ النوافذ، كانت الحجرات تغرق في الظلام حتى خلال النهار. حين نقرتُ مفتاح الكهرباء، لوَّنَ ضوءُ السقف الجوَّ المظلمَ بالبرتقاليّ.

رحتُ أفتح الأدراج بقوَّة. كانت قديمةً وتنزلق بصعوبة مُصدرةً صريرًا. ولم تكن العيِّنات الموجودة فيها مختلفةً كثيرًا عن العيِّنات الأحدث. ببساطة، كان زجاج أنابيب الاختبار أثخنَ، وسائلُ الحفظ اكتسب لونًا أغمقَ.

كانت توجد جميع أنواع العيِّنات. بصلة زنبق؛ حلقات سحريَّة؛ محبرة؛ حلية لتزيين الشعر؛ درع سلحفاة خضراء؛ أو مثبّت جوارب يرقدون فيها. لم يلمسها أحد منذ زمن طويل وتبدو أنَّها نُسيت في ركنها. حين أفتح الدرج، كانت تهتزّ كأنَّها مرعوبة في أسفل السائل.

كانت القاعات القديمة تفوح منها رائحة غريبة. رائحة جديدة، لم أشمَّ مثلها من قبل، لكنَّها لم تكن منفرة. كأنَّ مزيجًا لطيفًا من جزيئات الماضي التي تسرَّبت من العيِّنات سُجنت داخلها. كانت هذه الرائحة تملأ صدري مع كلِّ شهيق عميق.

أمام الأدراج الكثيرة، رحتُ أتساءل عمّا يمكن أن تكونه عيِّنة الحرق. كانت أصابع اليد اليسرى للسيِّد ديشيمارو

تمسك بالوجنة السليمة، بينما أصابع يده اليمنى تتعقَّب بدقَّة تقاطيعَ الحرق، بحثًا عن الندبة. وحين يجدها، يمسك بها بخفَّة بين الإبهام والسبَّابة، ويبدأ بنزعها برِفق، محاذرًا لئلَّا يمزِّقها. لم يغضب عندما بقيتْ معلَّقة وتكاد تُنْتَزَع. كانا قريبين جدًّا، أحدهما من الآخر، وأنفَاسُه تلهب وجنتها. عيناها مغمَضتان، وجفونها ترفّ من وقت إلى آخر.

وفور أن انفصل الحرق عن وجنتها، هل انساب كسائر العيِّنات في قاع سائل الحفظ؟ بالطبع، ولا ريب في أنَّه كان شيئًا ناعمًا وشفّافًا ورقيقًا، كقطعة نقاب مخرَّمة. وفي بعض الأماكن، ظلَّ يحتفظ بآثار الدم الذي يقطر على جلده ويلوِّن السائل باللون الورديّ، بالطريقة ذاتها التي صَبَغَتْ فيها قطعةٌ من بِنصري عصيرَ الليمون.

فحصتُ جميع العيِّنات بلا استثناء وأنا أتخيَّل المشهد. وتولَّد لديَّ شعور بأنَّني مهما فعلت، فربَّما لن أعثر على أكثر شيء أرغب فيه. لم يكن هناك إلَّا عيِّناتٌ بسيطة، وكلّ ما هو موجود عاديّ.

عزفتُ في النهاية عن بحثي، وجلستُ على الأرض. كانت شرائط حذائي مغطَّاةً بالغبار. وقد آلمني تخيُّلي ما يمكن أن يكون فعله السيِّد ديشيمارو لها، وأين وضعها، أكثر من إيلامي لعدم عثوري على عيِّنة الحرق. تناهى إلى سمعي

عزفُ البيانو الشجيُّ. كانت الأصابع الهرمة للسيِّدة 309 تُضْفي نغمات حزن على أيِّ قطعة موسيقيَّة. تنهَّدتُ.

حتى بعد اختفاء مظلَّة الفتاة الشابَّة ـ يُحتمَل أيضًا أنَّها عادت إلى بيتها من مَخرج لا أعرف بوجوده ـ لم يطرأ تغيير على حياتنا اليوميَّة، أنا والسيِّد ديشيمارو. ظلّ الزُّبُن يتوافدون بلا انقطاع ويغادرون بعد أن يتركوا أشياءهم لحفظها. وراحت أدراج قاعات الحفظ تمتلئ باطِّراد.

ومن وقت إلى آخر، كان يدعوني إلى قاعة الحمّامات، فأسارع لأجد نفسي فيه مرتديةً حذائي.

ذاتَ يوم، وكان الخريف قد بدأ فعلًا، دقَّت الساعة الخامسة، فصعد من القبو كعادته. حضّر القهوة وتفحَّص موادَّ النهار بهيئة هادئة، وراح يراقب الأوراق المتساقطة تتطاير في الحديقة، وقال مخاطبًا نفسه إنَّه يجب تركيب المدفأة. أمَّا أنا، فرحتُ أنجز بصمت الترتيباتِ المعتادةَ. ثبَّتُّ بقِطَع ممغنَطة برنامجَ عمل اليوم التالي، وحفظتُ الأوراق الهامَّة في الدُّرج وأغلقته بالمفتاح، وفصلتُ توصيلة الغلّاية الكهربائيَّة.

كان قلبي يخفق دومًا حين أبدأ بالترتيب، لأنَّه في تلك اللحظة كان يقرِّر هل سيصحبني إلى قاعة الحمّامات أم لا. إمّا يقول لي طاب مساؤك ويذهب، وإمّا يضع يده الطويلة

على ظهري ليدفعني نحو الممرّ.

كنتُ أترصَّد بعصبيَّة كلَّ حركة من حركاته وأنا منهمكة في الترتيب. لم أرفض قطُّ أيَّ دعوة من دعواته. كانت يده تأسِرُني وتشلُّ قدرتي على المقاومة. وفي المقابل، لم يكن يسعني أن أبادر إلى دعوته، لأنَّ عبارة «طاب مساؤك» كانت تخرج منه بنبرة قاطعة.

في ذلك اليوم، جاء أحد الفنِّيِّين لفحص الآلة الكاتبة، وبقي صندوق الحروف على طاولة المكتب. ولمّا رفعته لأُعيده إلى مكانه، تساءلت بقلق إن كان ينوي الذهاب إلى صالة الحمّامات أم لا. كان الصندوق المعدنيُّ ذو اللون الرصاصيِّ ثقيلًا ومقسَّمًا أدراجًا مربَّعةً، طول ضلعها خمسة ملليمترات، ويحتوي كلّ واحد منها على حرف مختلف. وكانت الأحرف تتصادم عند أقلّ حركة.

حين بدأتُ أخطو نحو الآلة الكاتبة وأنا أحمل صندوق الحروف، دخلتْ ساق السيِّد ديشيمارو مجالَ نظري، فتعثرتُ وتركتُ الصندوق يسقط. تناثرت الحروف على الأرض.

في البداية، لم أفهم تمامًا ما حدث. كان يجب أن يُحدث ذلك ضجَّةً مرعبة، لكنّ كلّ شيء ظلَّ هادئًا في قاع أذني. في تلك اللحظة، حاولتُ أن أتذكَّر لماذا تركتُ صندوق الحروف مع أنَّني كنتُ أمسك به بقوَّة، ولماذا جاءت

ساقه لتتحرَّك أمام ناظري؟ لكنَّني لم أفلح في ذلك.

كانت عيناه مسبَلتين نحو الأرض، وفنجان القهوة في يده. لم يبدُ متفاجئًا ولا واجمًا ولا غاضبًا، وإنَّما مكث هادئًا كأنَّه يعدّ الأحرف وهو يدندن.

لكن، في الواقع، كان يوجد عدد لا يحصى منها. كأنَّ جميع الكلمات المُدرَجة في القاموس تبعثرت على الأرض. مكثتُ ساكنة لبرهة وأنا راكعة على ركبتي بعد سقوطي. قال لي:

«يجب جمعها.» لم يتكلَّم ببرود، وإنَّما برقَّة من يُسدي نصيحة. وتابع: «يجب إعادتها إلى مكانها، جميعها بلا استثناء.»

وركل بطرف حذائه رمزًا طباعيًّا قرب قدميه، فارتمى أمامي. كان الحرف ساطعًا.

في جميع الأحوال، يجب أن أبدأ بأحد الأحرف. ولا بدَّ من أن يكون كلُّ شيء مرتَّبًا قبل وصول أوَّل زبون في صبيحة اليوم التالي. التقطته.

إنَّه عبارة عن متوازي سطوح معدنيّ صغير، يحمل رقمًا على الوجه المقابل للوجه الذي نُقش عليه الحرفُ يوافق إحداثيَّات المربَّع الذي يجب أن يوضع فيه. كان

الرمز الطباعيّ[1] هو كلمة **ساطع 56 ـ 89**. استغرقتُ وقتًا لأحدِّد المربَّع 56 ـ 89 قبل وضعه فيه، لكنَّني نجحت في إعادة الرمز إلى مكانه في الصندوق الضخم.

كانت قد طارت في كلِّ أنحاء الحجرة، كأنَّها سربٌ من الحشرات الرماديَّة لَبَدَ في زاويته وتَحَيَّنَ اللحظة المناسبة، وتدفَّقَ من مكان ما. وفي وسط الحجرة، بدا الصندوق، بفمه الفاغر، يشبه مدخل مغارةٍ متثائبًا. وغيَّر مكتبُ الاستقبال، المألوف في العادة، هيئتَه. راح الغسق يطفو بينه، هو الذي يسند ظهره إلى الجدار، وبيني، أنا المقرفصة على الأرض، وطفق النور الشحيح المتبقِّي يضيء الرموز بشدَّة.

بحثتُ وأنا أحبو تحت الكراسيّ، تحت الخزانة، في أردان الستارة. كان يوجد منها حتى في أصغر الخبايا. الرمز سكّر كساه الغبار. الرموز **عاشق وعارٍ ووردة**، كانت فوق بعضها البعض. وكان الرمز **كريستال**، المختبئ خلف سلّة المهملات، آخرَ رمز طبعته ذلك اليوم، وذلك لفهرسة قطعة حجر لامع أحضرها لي رجل ناضج يرتدي بزّة رثّة. التقطته وأنا أحاول بصعوبة العثور على سياق قصَّة هذا الحجر اللامع التي استغرق ساعة في سردها. أمسكت به بيدي اليسرى،

(1) تتألَّف اللغة اليابانيَّة المكتوبةُ من عدد كبير من الرموز، هي عبارةٌ عن كلمات، ويبلغ عددها الآن نحو ألفي رمز.

وجاء ليستقرَّ بالضبط مكان الجزء المفقود من بِنصري. كانت جميع الرموز باردة.

كان السيِّد ديشيمارو يحدِّق فيّ، مكتوف اليدين. لم يأتِ بأيٍّ حركة ليلتقط أيَّ رمز أو يدسَّه في الصندوق، واكتفى بمراقبة ركبتَيَّ المثنيَّتين، وحذائي الذي لم أتخلَّ عنه حتى في هذه الوضعيَّة، وطرفِ تنُّورتي الذي يكنس الأرض. كانت نظراته تتفحَّص كلّ الحجرة.

بدأت ركبتايَ تؤلمانني. نمّلت يداي، وزاغ بصري. ولبعض الوقت، لم يطرأ أيُّ تغيير. هو يراقبني وأنا أزحف، وهذا كلّ شيء. راودني الأمل مرَّة واحدة، حين مدَّ يده ليشغل كهرباء الغرفة، ظنًّا منه أنَّ في مقدوره أن يُعَدِّلَ شيئًا في هذا المشهد التجريديّ. لكنْ، حين اعتاد نظري الضوءَ، عاد كلُّ شيء كما كان في السابق.

لم يزل حوله الكثيرُ من الرموز. شعرتُ بأنَّني مثل حيوان صغير بلا حيلة عند قدميه. تساءلتُ إن كنتُ سأتابع التقاطها من دون أن يقاطعني مهما حدث، وهل سأكتفي بإطلاق صرخات حزينة لو قرَّر سحق أصابعي أو ركلي في ظهري. لكنَّ قدميه لم تتحرَّكا قيد أنملة في الحقيقة.

كانت هذه أوَّلَ مرَّة أرى فيها حذاءه عن كثب. لا مأخذ عليه أيضًا. مثل الحذاءَ الذي قدَّمه إليّ. يغلِّف قدميه تمامًا.

ليس فيه خدشٌ ولا تشوبه شائبة. تساءلت ماذا سيقول الرجل العجوز، صاحب عظام عصفور جاوة، لو رآه.

أصبح الظلام دامسًا الآن، واتَّسَقَ القمر في كبد السماء. وفي الحديقة، سكنتْ شجرة الجنكة وأصصُ الورد ومجرفةٌ في دياجير الظلمات. لا بدَّ من أنَّ السيِّدة 309 والسيِّدة 223 نامتا الآنَ لأنَّه لا توجد أيُّ ضجَّة في الأعلى. كلُّ شيء يجري بصمت. كان خيالي ينعكس على زجاج النافذة، وكنت أبدو كأنَّني ألثم حذاءه.

أتساءل كم من الزمن انصرم هكذا. أصبح الليل دامسًا أكثرَ فأكثر، ثم حين بلغ أقصاه، انطلق في الاتِّجاه المعاكس، وراح ينجلي بالتَّدريج. أخذت العصافير تزقزق، ومرَّت درَّاجة موزِّع الصحف. ولم يلبث القمر أن غاب. دسستُ الرمز الأخير، أي حرف **شاطئ**، وهي كلمة هادئة وجميلة تناسب تمامًا نهايةَ هذا العمل الطويل، في المربَّع 78 ـ 23.

بعد أن تأكَّدتُ من أنَّه عثر على مكانه في الصندوق مُحْدِثًا قرقعةً خافتة جافَّة، تمدَّدتُ على الأرض، منهَكة.

ـ انتهى هذا، أليس كذلك؟

توقَّفَ أخيرًا عن مراقبتي، ليدنوَ منِّي.

ـ عَثَرَتْ جميعُها على أماكنها.

رنَّ صوته وسط الحجرة التي بقيت صامتة وقتًا طويلًا. لم تُسعفني قواي لأردَّ عليه. كان جسدي الواقع تحت سطوة نظرته عاجزًا عن الحركة. أغمضتُ عينَيَّ. كانت جفوني هي الوحيدة، بلا ريب، المتمتِّعة بالحرِّيَّة.

جثا قرب أذني، واحتضن كتفَيَّ. كانت ذراعاه الطويلتان الدافئتان لطيفتين. وكان أمرًا رائعًا ومُطَمْئنًا أن أكون حبيستَهما، لأنَّه لم يعد أمامي سبيلٌ آخر سوى الاستسلام له، من دون أن أفكِّر في أيِّ شيء.

«إنَّها أوَّلُ مرَّة أبقى فيها معكِ هذه الفترةَ من الوقت، أليس كذلك؟» قال، وأضاف: «وكان هذا ردَّةَ فعل لطيفةً لا تتناسب مع صعوبة المهمَّة التي أنجزتِها للتوّ.»

«هل انبلج الصبح الآن؟» أجبت ولم تزل عيناي مغمَضتين.

ـ أجل، إنَّه الصباح.

ـ آه...

ـ أنتِ عملتِ طوال الليل من أجلي.

ـ أَدْرَكَنَا الصباحُ معًا.

ـ سيكون الجوُّ صحوًا اليومَ أيضًا، لأنَّه يوجد ضباب.

رحنا نتبادل محادثة كما لو أنّنا في السرير. لكنَّنا لم نلتقِ قطّ في سرير حقيقيّ.

وعلى الرَّغم من عينَيَّ المغمَضتين، فإنَّني شعرتُ بشروق أشعَّة الشمس. استيقظتْ إحدى السيِّدتين، لأنَّنا سمعنا وقع خطى ونشيجَ الماء في الأنابيب.

ـ ربَّما لن يلبث الزبون الأوَّل هذا الصباح أن يصل؟

ـ لا، اطمئنِّي. لم يزل أمامَنا متَّسعٌ من الوقت.

«أتساءل مَن عساه يكون، وما عساه يحضِّر لنا،» قلتُ، ووجهي ملتصق بمئزره الأبيض. لم يزل يفوح برائحة المُستحضر الكيميائيّ ذاتها.

ـ هذا ما لا يعلمه أحد.

ـ من الأفضل ألَّا يأتينا الكثير من العمل.

ـ لماذا؟

ـ لأنَّنا لم نَنَمْ.

ـ معكِ حقّ.

أمسك بيدي اليسرى المتصلِّبة من الخدر.

ـ أخبِرْني بشأن الفتاة الشابّة ذلك اليوم؛ تلك التي أرادت عيِّنة لحرقها. أين العيِّنة؟

كنتُ أثرثر أكثر من المعتاد حين أكون بين ذراعيه، لأنَّني لا أرى وجهه.

ـ لماذا تسألينني عنها؟

ـ لأنَّها هي من طلبت عيِّنة الفطور، الأُولى التي أريتني إيَّاها، وفوق ذلك وجنتُها أثَّرت فيَّ تأثيرًا قويًّا.

ـ إنَّها في المخبَر في القبو.

ـ ولماذا ليست في قاعة حفظ؟

ـ ليس هناك سببٌ خاصٌّ. جميع العيِّنات الموجودة هنا في عهدتي. ولا يحقُّ لأحد التدخُّل، ولا حتى أنتِ.

«لم أقصد ذلك. كنتُ أرغب فقط في رؤية وجنتها. هذا كلّ شيء،» أجبت.

لم يردّ بشيء، واكتفى بمداعبة يدي اليسرى. لامست أنفاسُه حاجبَيَّ.

ـ خذني إلى المخبَر.

ظلَّ صامتًا. بدا أنَّه يبحث عن كلمات، ما لم يكن يفكِّر في شيء آخر مختلف تمامًا.

«أنا الوحيد المخوَّل بالدخول إليه،» أفْلَتَ هذا الجواب فجأة.

ـ الفتاة ذات الحرق ذهبت إليه أيضًا.

ـ أجل، لكن ذلك من أجل عيِّنتها. هنا، الأولويَّة للعيَّنات.

ـ إذًا، سيسعني أنا أيضًا النزولُ معك إلى القبو إن طلبتُ عيِّنة لا يمكن فصلها عنِّي؟

ـ آه.

ـ أنا أيضًا يمكنني أن أصبح إحدى العيِّنات التي في عهدتك؟

وردًّا على ذلك، رفع بِنصر يدي اليسرى. فتحتُ عينيَّ. انتابني إحساس بأنَّ إصبعي تنفصل عن بقيَّة جسدي ببطء. هذه الإصبع التي يفترض أنَّها أصبحت مألوفة، بدت لي مشوَّهة في أشعَّة الشمس الصباحيَّة التي تُضيء مكتب الاستقبال. دسَّها في فمه.

مرَّت بضع ثوانٍ قبل أن تحسَّ إصبعي بعذوبة شفتيه. تركته يفعل ذلك.

حين سحب شفتيه، كانت بِنصري مبلَّلةً. ينقصها الرأس، كأنَّه هو من قضمه.

6

أتى فصل الشتاء بسرعة، وخفَّ عزف السيِّدة 309 على البيانو، بسبب البرد، على ما أعتقد، وقدَّمت إليّ السيِّدة 223 وشاحًا حاكته. كان من نسيج الموهير ومطرَّزًا بالورود.

وذاتَ صباح بارد الطقس، جاءت السيِّدة 223 لتقول لي حين كنتُ أهمّ بأن أبدأ العمل:

ـ ما زال لديكِ متَّسَع من الوقت، أليس كذلك؟ هل ترغبين في أن تُمضيه عندي؟

كانت أوَّلَ مرَّة أدخل فيها الغرفةَ 223، الأكثرَ اتِّساعًا من الغرفة 309، لأنَّه لم يكن يوجد فيها بيانو، وفوق ذلك كانت مرتَّبة. وببساطة، زُيِّنَتْ أقلُّ فسحة فيها بأشغال يدويَّة. المقابض مكسوَّة بأغطية مشغولة بالصِّنارة، وغطاءُ الطاولة

مزركَش بالرُّقَع، وثمَّة مناظرُ مطرَّزة على الجدران، وقطَّةٌ محشوَّة فوق خزانة الملابس، وأشياء أخرى من النوع نفسه في كلٍّ مكان تقريبًا.

أخرجتِ الوشاح قائلة:

ـ خذي، هذا لكِ. الجوُّ بارد داخل الحجرة في الأسفل، بسبب تيَّارات الهواء.

قَبِلْتُه بامتنان. وبعد ذلك، سخَّنَتْ حساءَ الخُضَر، موضِّحةً أنَّ هذا ما تبقّى من إفطارها.

«منذ متى تعملين هنا؟» سألتني.

«منذ عام وأربعة أشهر،» أجبتُ وأنا أرجئ حركة ملعقتي.

ـ آه، فترة مديدة، إذًا.

ـ حقًّا؟

ـ أجل. مضى وقت طويل على وجود المخبَر. وحتى الآن، معظمُ الفتيات غادرنَ في أقلّ من عام. في نهاية المطاف، أتساءل إن كانت كلمة «غادرن» صحيحة.

أمالت رأسها بخفّة إلى اليمين، متأمِّلة.

ـ ماذا تعنين؟

ـ يختفينَ بين ليلة وضحاها. كأنَّهنَّ يتبخَّرنَ، حتى من دون كلمة وداع. بالتأكيد، لدى بعضهنَّ أسبابٌ وجيهة ليُغادرنَ: يتزوَّجنَ؛ يعدنَ ثانية إلى عائلاتهنَّ في الريف؛ يجدن العمل مملًّا. أسبابٌ شتّى كما ترين.

كان صوتها مبحوحًا، لكنَّه يحتفظ بقوَّة الزمن الذي كانت فيه عاملةَ مقسم. ردَّدتُ في سرِّي كلمة «يتبخّرن،» وأنا أتذكَّر حرق الفتاة الشابَّة. كانت صورة ندبتها الثابتة على شبكيَّة عيني شاحبةً ورقيقة، فبدت أنَّها تُجمِّلها. ضغطتُ طرف ملعقتي على حافَّة قطعة جزر لأُنزلها إلى القاع.

ـ كيف كانت الفتاة التي سبقتني في المكتب؟

ـ كانت فتاة شابّة في مثل سنّك تقريبًا. أتذكَّرها بوضوح، لأنَّني شاهدتها مصادفةً عشيَّةَ يوم اختفائها. كنت في طريقي إلى متجر لوازم الخياطة لأشتري خيطان تطريز فالتقيتها في الممرّ. أظنّ أنَّها لم ترَني، لأنَّ الوقت كان مساءً والظلامَ كان دامسًا. كانت تنكِّس رأسها، لكنَّها لم تكن مستاءة. كيف أصفها: بدت مُطْمَئِنَّة. وأكثر ما أذهلني هو ذفُّ حذائها. كما تعرفين، كنت عاملة مقسم هاتفيّ، ولذلك لديَّ حساسيَّة فائقة تجاه الأصوات. شعرتُ، على الفور، بأنّه ذفٌّ ثقيل ذو معنى، ولا يمكن أن أدعه يمرّ مرور الكرام. هذا لا يعني أنَّه كان قويًّا، ولكنَّه أعلى من همس أو وشوشة. ولم أسمع شيئًا آخر. كان يوجد فقط هذا الذفُّ

الخافت للكعبين. كان واضحًا ومنتظمًا. لم أسمع في حياتي ذفًّا مشابهًا له. وطَفِقَتْ تداعب خيوط زركشات غطاء الطاولة. وفي اليوم التالي، كما ترين، اختفت.

«هل تتذكَّرين الحذاء الذي كانت تنتعله؟» سألتُ، وملعقتي في يدي، وقد سهوتُ عن الطعام.

ـ بالضبط، لا. لم أرَه لأنَّ الظلام كان حالكًا، ولأنَّني ركَّزتُ في الصوت.

«آه، حسنًا؟» خفضتُ بصري نحو صحني، وأضفت: «وأين ذهبتْ؟»

«إلى القبو،» أجابت بلا تردُّد. وتابعت: «مثلُها مثلُ المدعوّ السيِّد ديشيمارو، لا نعرف حقَّ المعرفة مَن هو. لعلَّه أصبح هكذا بسبب إمضائه جلَّ وقته محبوسًا في قبو يحضِّر العيِّنات. في أيِّ حال، آمل ألَّا تختفي، أنتِ أيضًا، فجأة. عودي لرؤيتي متى شئتِ. سأعلِّمك الخياطة.»

ابْتَسَمَتْ ابتسامة بريئة.

ـ أجل. أشكرك جزيل الشكر على هذا الوشاح الرائع.

امتزج صدى صوتها لمّا قالت «في القبو» والحرق على الوجنة وذفِّ الكعبين. امتزجت جميعًا في الممرِّ وشكَّلت زوبعة في داخلي.

حين بدأت الريح تهبّ حاملة زوابع ثلجيَّة، تضاءل عدد الزُّبُن أيضًا. لعلَّ الماضي الذي نريد حفظه يتجمَّد هو أيضًا في الشتاء، ولذلك تتضاءل حاجتنا إلى تحنيطه.

في أحد النهارات، توفِّيت السيِّدة 309 فجأة. اكتشفتها السيِّدة 223 هامدةً في سريرها بُعيد الظهيرة حين جاءت لرؤيتها، حاملةً لها البرتقالَ. عندها هرعنا أنا والسيِّد ديشيمارو فور سماعنا صراخَها، فوجدنا برتقالات عديدة تدحرجت على الأرض.

كانت السيِّدة 309 مستلقية على ظهرها. جسدها مستقيم، والغطاء مرفوع حتى كتفيها. عيناها مغلقتان، ولم يبدُ عليها أنَّها تألَّمت. كانت نهايةً في غاية البساطة، كأنَّ الزمن توقَّف فجأة حولها في أثناء نومها. كان يوجد فوق طاولة سريرها دواءٌ على شكل مسحوق تجرَّعته بلا شكٍّ مساءَ البارحة، وكأسٌ لم يزل فيها القليلُ من الماء. كان غطاء البيانو مفتوحًا. ساعدتُ السيِّدةَ 223 الجالسة على الأرض وهي ترتجف على النهوض، ثم أعدتُ البرتقالات إلى سلَّة القصب التي كانت تحت ذراعها. رتَّب السيِّد ديشيمارو الغطاء على نحو ملائم قبل أن يُنزل غطاء البيانو.

من أجل الجنازة، أخرجنا منضدة كرة الطاولة من الحجرة التي كانت تُستخدم صالةَ ألعاب في فترة سكن

الفتيات الشابَّات. لم يكن لديها عائلةٌ، لذلك التقينا نحن الثلاثة، أنا والسيِّدة 223 والسيِّد ديشيمارو، في حفل التأبين. شبكنا أصابعها التي عزفت الكثير من المقطوعات الموسيقيّة فوق صدرها، بينما اختفى شعرها الأبيض تحت الورود.

أرهقَنا تفكيرُنا لنعرف ماذا سنفعل بأمتعتها. ليس بسبب قيمة الأشياء المادِّيَّة، وإنَّما لأنَّنا تساءلنا كيف استطاعت حجرة بهذا الصِّغر أن تحوي هذا القَدْرَ من الأشياء.

قرَّرنا أخيرًا أن نفرز معًا أمتعتها. قسَّمنا أوَّلًا ما يمكن أن يكون نافعًا لنا ـ وبما أنَّه لم يكن هناك شيءٌ مهمٌّ يناسبني ويناسب السيِّد ديشيمارو، ذهبت جميع الثياب ومساحيق التجميل تقريبًا إلى السيِّدة 223 ـ قبل أن ننقل البيانو إلى بهو المدخل ونتخلَّص من البقيَّة. وببساطة، فيما يتعلَّق بالأشياء التي خلنا أنَّها كانت أثيرة على قلبها في حياتها ـ يوجد إجمالًا نحو عشرةٌ منها، مثل الصور الفوتوغرافيَّة، الميقاتيَّة الموسيقيَّة أو غطاء البيانو ـ قرَّرنا حفظها وتحنيطها. كانت تُقلقُنا فكرةُ أن نتحمَّل مسؤولية هذا الخِيار، لكنّ السيِّدة 223 هي التي اقترحته علينا، ما دام المخبَر موجودًا. ومن جانبه، لم يعارض السيِّد ديشيمارو ذلك. وهكذا، اتُّخِذَ قرارٌ بتحضير عيِّنات لم يطلبها أحد.

سارت بقيَّة الإجراءات من دون مشكلة. أُفْرِغَتْ الحجرة 309 وأُقْفِلَتْ بالمفتاح، في انتظار تحويلها قريبًا إلى قاعة حفظ.

هذا الغياب الوحيد، ولو أنَّه مجرَّدُ غياب لسيِّدة مُسِنَّة هادئة كانت تكتفي بالعزف على البيانو، أدَّى إلى تعميق الهدوء في المختبَر. بدت السيِّدة 223 تتابع أشغالها اليدويَّة من دون أن تُحدث أيّ ضجيج، بينما لم يتسرَّب شيء من خلال الباب الثقيل يشي بما كان يحدث في مختبَر القبو. وحدث لي أنَّني بينما كنت أنتظر الزُّبُن وحيدةً في مكتب الاستقبال، ألفيت نفسي على وشك الغرق في دوّامة الهدوء.

كان ذلك اليوم حزينًا أكثر من المعتاد. لم يأتِ أحد ليقرع باب المدخل ولم يرنَّ الهاتف مرَّة واحدة طوال فترة الصباح. وفي الآونة الأخيرة، ظلَّ السيِّد ديشيمارو منزويًا في مخبَره، على الرَّغم من تضاؤل عدد طالبي العيِّنات، مبرِّرًا بأنَّه لا يوجد شيء لحفظه. وبعد أن قتلتُ الوقت بكلِّ السبل: تزييت الآلة الكاتبة؛ بَرْي أقلام الرصاص؛ ترتيب بطاقات الزيارة والرسائل؛ جَلْي الكؤوس الزجاجيَّة أيضًا، لم أجد شيئًا أفعله إلَّا المكوث هنا، حالمةً، أسمع حسيسَ النار في المدفأة.

كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة بعد الظهر. كنت أشعر

بالملل فخرجتُ أتنزَّه. في الأحوال العاديَّة، لا يُفترض بي أن أفعل ذلك، لكنَّني كنتُ متأكِّدة من أنَّ أيَّ زبون لن يأتي في هذا المساء البارد والغائم، ورغبتُ طبعًا في أن أستنشقَ الهواء في الخارج.

كانت الريحُ قويَّةً. الشارع مزدحم، وأخذتِ السيَّارات هنا وهناك تُشعل أضواءها. أوراق أشجار تتطاير على الرصيف. مارَّة يهرولون، ورؤوسهم مطأطئة.

وكما تنبَّأ الرجل العجوز، صاحبُ عصفور جاوة، أصبح حذائي الآن ملتصقًا تمامًا تقريبًا بقدمَيَّ، وراح ذفُّه على الرصيف ينعكس داخل كعبَيَّ. كنتُ أحتاج إلى الشجاعة لأخلعه في المدخل حين أعود إلى البيت. وبقيتُ دومًا أمرُّ في لحظة تردُّد حين أضع يدي عليه، لأنَّني كنتُ أشعر بإحساس مؤلم لفراقه، كأنَّني أنتزع جلدي.

غطَّت السُّحُبُ الرماديَّة السماءَ من جهة الغرب. ومن حين إلى آخر، راحت هبَّة ريح ترفع شعري وتنُّورتي، فأحكمتُ شدَّ وشاح الموهير حول عنقي.

بعد ربع ساعة من المشي، وصلت إلى مفترق المجمع الثالث. كنتُ عند ملتقى طُرق مزدحم، مع مبانٍ مكتبيَّة، ومركز شرطة ومكتبة. أنعمتُ النظر تحت جسر المشاة الضيِّق الذي يجتازه.

ـ طاب يومك.

كان الرجل العجوز، صاحبُ عصفور جاوة، يرتدي بزّةَ المرَّة السابقة نفسها، ويدخِّن لفافة تبغ.

ـ يا لها من مفاجأة! ألستِ المرأة الشابَّة التي تعمل في المخبَر؟

وسارع إلى رمي لفافة تبغه في علبة صفيح فارغة موضوعة عند قدميه.

ـ جئتُ بناءً على وعدك باستخدام ورنيش خاصّ لحذائي.

ـ آه، حسنًا، جئتِ عن عمد؟ تعالَيْ واجلسي هنا.

جلستُ على كرسيّ قديم.

«كيف حال عيِّنة عصفور جاوة منذ آخر مرَّة؟» سألني وهو يحضِّر أدواته.

ـ نحتفظ بها بعناية كبيرة في القاعة 303. العظام مادَّة مناسبة تمامًا للحفظ. يُلاحَظُ بياضُها ونعومتها أكثر في سائل الحفظ، كما تعرف. في وسعك أن تأتي لرؤيتها متى شئت.

ـ آه، أشكركِ.

بدا مهتمًّا بعمله كماسح أحذية أكثر من اهتمامه بعيِّنته،

مع أنَّه هو من بادر بالحديث عنها.

«أوه، هذا ما توقَّعته،» دمدم وهو يتأمَّل قدمي الموضوعةَ فوق صندوقه. وأضاف: «إنه ليس حذاءً عاديًّا. تدهورت حالته منذ المرَّة الأخيرة.»

ـ حقًّا؟

ـ بلا أدنى شكّ. يكاد الحذاء يمتصُّ قدميك تمامًا. حدث الأمر ذاته لقدمَي الجندي الذي التقيته هنا منذ اثنين وأربعين عامًا. مصادفةُ مثلِ هذا الحذاء هي سعادةٌ حقيقيَّة بالنسبة إلى حذّاء. في كلِّ حال، سألمِّعه لكِ.

وبدأ بتنفيذ المهمَّة.

على كلا جانبيه كان يوجد صندوقٌ خشبيٌّ يشبه صندوق الطِّلاء، يحتوي على أدوات عمله: مطرقة؛ كمَّاشة؛ مبرد؛ ورنيش أحذية من كلّ الألوان وفُرَش متنوِّعة، مرتَّبة بحيث تشغل أصغر حيِّز ممكن. وكانت هذه الأدوات تحمل آثار الاستعمال المديد.

وإضافة إلى أدوات عمله، لديه مذياع صغير يشبه لعبة. كان يبثّ أغاني يطغى عليها بين الحين والآخر ضجيجُ السيَّارات.

تحت ممرّ المشاة، كانت الريح أهدأ، لكنَّ الجوّ باردٌ

بسببِ الإسمنت. وكلّما صعد أحدٌ الدرجَ أو نزله، كانت تحدث ضجّةٌ فوق رؤوسنا. وثمَّة درّاجة عاديَّة بلا سرج رُكِنَتْ في إحدى الزوايا.

أزال الرجل العجوز الغبار بضربات من الفرشاة أوَّلًا، ثم وضع بعض الكْريم الشفَّاف على خرقة ظلَّت معلَّقة بحزامه حتى ذلك الحين وبدأ يفركه. راحت أصابعه الملطَّخة بالكامل تتحرَّك بسرعة وفعاليَّة، من دون أن تقسو على الحذاء. كان يُوْلي كلَّ اهتمامه لأبسط حركة، مثل تتبُّع الانحناءات المحدبة لمشط القدم أو رفع الشريطة. وراودني إحساس بأنَّ يديه تداعبان قدمَيَّ عبر جلد الحذاء. سألته:

ـ هل هذا هو الورنيش الخاصّ؟

ـ لا، يجب أولًا أن أستخدم ورنيشًا منظِّفًا. لكنّ الحذاء يستمتع بالتلميع. يستجيب بشكل جيِّد للنيَّة الحَسَنة التي أُظهرها له.

ـ لأنّ النيَّة الحَسَنة تنفع مع الأحذية؟

ـ بالتأكيد، قد تكون هناك نيَّة حَسَنة أو نيَّة سيِّئة. لا بدَّ من أنَّك تعرفين ذلك، أنتِ مَن تهتمِّين بالعيِّنات. إنَّه أمر يتعلَّق بالعَلاقة بين الأشياء.

«أجل،» وافقتُ.

وطوال هذا الوقت، لم يتوقَّف الرجل العجوز. ظلَّ يداعب جميع أجزاء حذائي بخرقته التي بدت في غاية الرقَّة، ونظرته متنبِّهة حتى لا تفوتها أيُّ شائبة. وراح من حين إلى آخر يضيف الورنيش، أو يطوي خرقته.

«لكنْ، أخبريني يا آنسة، هل تنوين الاستمرار هكذا؟» سألني بلهجة مختلفة.

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني إن أردت خلع حذاءك: إمّا أن تخلعيه الآن وإمّا ألَّا تخلعيه أبدًا.

وأشار إلى حذائي بذقنه. وفي المذياع، راحت الأغنية ترتعش مع الريح.

ـ هل تعتقد أنَّ من الأفضل أن أخلعه؟

ـ لستُ أنا من يقرِّر نيابةً عنك، أقول فقط إنَّه يجب أن تتخلَّصي منه قبل فوات الأوان.

«لعلَّك محقٌّ،» تلعثمتُ وأنا أنظر إلى قدمَيَّ وقد أصبحتا لا تشوبهما شائبة.

ـ هوذا، ورنيشي الخاصّ. سيحميه من المطر، ومن الغبار والخدوش. وسترين، سيلمع مثلَ جوهرة.

أخرج الرجل العجوز علبة معدنيَّة فضِّيَّة مسطَّحة من زاوية

صندوقه، وفتحها بمهارة. كان معدن العلبة صَدِئًا وكامدًا بسبب الغازات المنبعثة من عوادم السيَّارات، لكنّ الورنيش الأسود داخلها يلمع كأنَّه مبلَّل، وزَّعه بعناية على سطح الحذاء بالتساوي.

ـ هل قدَّم إليك شخصٌ ما هذا الحذاءَ؟

ـ فعلًا، كيف عرفتَ ذلك؟

ـ لمّعت عددًا لا يُحصى من الأحذية حتى الآن، وأعرف ذلك من النظرة الأولى. هل أنت مغرَمة به؟

وأنا لا أدري بماذا أُجيب، طأطأتُ رأسي وداعبتُ طرف وشاحي. راح الجلد يمتصُّ الورنيش الخاصَّ المنتشر على كامل سطح الحذاء. كان جسدي متجمِّدًا تمامًا، لكن بفضل الورنيش ويديه ظلَّت قدماي دافئتين.

ـ لستُ متأكِّدة تمامًا. لا أعرفه حقَّ المعرفة، لأنَّه ليس لديَّ حتى الآن أيُّ عَلاقة بشخص يمكنني أن أسمِّيه حبيبًا. لكنَّني واثقة بإحساسي وحالتي اللذين يجعلانني غيرَ قادرة على تركه. وإن رغبتُ في البقاء بقربه، فلن يكون الأمر بهذه السهولة. إنَّني مرتبطة به بطريقة أكثرَ جوهريَّة وجذريَّة.

ـ آه، لا أفهم الأمور الصعبة. لكنْ، في أيّ حال، هذا بسبب حذائك. هو والحذاء مترابطان. وكلُّ ما يمكنني قوله،

هو أنَّكِ إن لم تخلعي هذا الحذاء في الحال، فلن يسعك التخلُّصُ منه أبدًا. لن يمنحك هذا الحذاء الحرِّيَّة أبدًا.

كلَّما تحرَّكت يد الرجل العجوز، ازداد الحذاء لمعانًا. كانت قدماي تحسّان بجميع حركات أصابعه. هبط المساء على المدينة وأُضيئت مصابيحُ الشوارع. اجتازت سيَّارة إسعاف التقاطعَ. لم أنتبه إلى أنَّ المذياع يبثُّ الآن كونشيرتو على البيانو.

«لعلّي أتدخَّل فيما لا يعنيني: ولكنْ، لماذا لا تجعلين هذا الحذاءَ عيِّنةً؟» اقترح، وأضاف: «بالتأكيد ستفوق قيمتُه قيمةَ عصفور جاوة بكثير. ومن جهة أخرى، ألا يعني جعلُه عيِّنةً حبسَه في داخلك إلى الأبد؟ هذا ما شرحتِه لي في المخبَر، أليس كذلك؟»

وافقتُ.

ـ في هذه الحالة، ستتحرَّر قدماك يا آنسة. ستتمكَّنين من صنع حذائك الخاصّ.

راح رأسه، بشعره الأبيض القصير، يتمايل عند مستوى ركبتَيَّ. مكثنا صامتَين لبرهة، نصغي إلى صوت احتكاك الخرقة على حذائي. وثمَّة أناس ينتعلون أحذية عاديَّة يمرُّون قربنا، لكنَّ أيًّا منهم لم يُعِرْنا انتباهًا.

«لا أنوي أن أخلعه،» تمتمت بعد صمتٍ مديد.

وأضفت: «لا أرغب في أن أكون حرَّة. أريد أن يحبِسَني معه في المخبَر.»

«آه، حسنًا. هل هذا ما تريدينه؟ إذًا، لن أُلِحَّ.» كان صوته لطيفًا، ثم قال: «حسنًا، انتهيت. أصبح جاهزًا.»

وأخيرًا، أعاد عقد الشرائط قبل أن يمسكها برقَّة بين أصابعه الخشنة. كانت قدماي الوحيدتين اللتين تلمعان بغرور تحت جسر المشاة بعد أن ابتلع الظلامُ كلَّ شيء: الصناديق والجدران الإسمنتيَّة وملابس العمل.

ـ أشكرك جزيل الشكر لأنَّك لمَّعته بعناية فائقة.

«لا شكرَ على واجب، لنرَ. آه، لكنَّني لا أريد أجرًا. إنَّه لَشرفٌ لي أنَّك طلبت منِّي تلميعَه،» هتف وهو يمسكني حين هممتُ بإخراج محفظة النقود من جيبي.

ـ أشكرك على كلّ شيء.

ـ ستعودين حقًّا إلى المخبَر؟

ـ أجل.

ـ حسنًا. إذًا، لن أراكِ ثانية. كوني بخير.

ـ وأنت أيضًا.

ـ همم.

ـ إلى اللقاء.

مكتبة
t.me/t_pdf

تركته والتفتُّ عدَّة مرَّات لألوِّح له بيدي. ولم تلبث موجة من المارَّة أن حجبته عن نظري. وحدَه دفءُ يديه ظلَّ على قدمي إلى أجَل غير مسمًّى.

كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة حين عدت إلى المخبَر. لم يبدُ أنَّ السيِّد ديشيمارو صعد بعدُ من القبو، ومكتبُ الاستقبال غارقٌ في الظلمة، والجوُّ كان باردًا فيه. شغّلتُ المدفأة الكهربائيَّة، وخلعتُ وشاحي. كانت أدوات الكتابة والسجلّ والآلة الكاتبة على حالها كما تركتُها قبل ذهابي. فتحتُ دُرج المكتب بحذر. لم يكن فيه شيءٌ جديد.

فتحتُ السجلَّ، وأكملت التبويباتِ الضروريَّة، على صفحة جديدة: التاريخ؛ الاسم؛ تاريخ الميلاد؛ العنوان؛ رقم الهاتف؛ المهنة، وطبيعة العيِّنة. انتهى التسجيل. كان في غاية البساطة. لم أُضطرَّ إلى التوضيحات التي يجب عليَّ أن أزوِّد بها جميع الزُّبُن تقريبًا، عن العمليَّة وعن شكل العيِّنات ومعناها. ولم أحتَجْ إلى رواية ذكريات قديمة بشأن الشيء الذي أحضرته. كنتُ أعرف سلَفًا جميعَ أنشطة المخبَر.

ثم جلستُ أمام الآلة الكاتبة لتجهيز لصاقَة أنبوب الاختبار. وبما أنَّه لم يكن لديَّ أيُّ فكرة عن حجم الأنبوب الذي سيُستخدَم، اخترت نموذج اللصاقة الذي نستخدمه في أغلب الأحيان.

كانت الحروف مرتَّبة بانتظام، كأنَّ تبعثُرَها مؤخَّرًا لم

يحدث قطُّ. راحت جميعها ترتعش في صندوقها حين أمسكت بالعتلة.

أوَّلًا رقم التسجيل F30999 - 26. ثم اسم العيِّنة. بِنصر.

واللصاقةُ في يدي، سلكتُ الممرَّ المُفْضي إلى باب مخبَر العيِّنات. أحدث حذائي ذفًّا وصل صداه حتى السقف. توقَّفت في الطريق لمعاينة بِنصر يدي اليسرى تحت ضوء المصباح. لا تزال تنقصها قطعةٌ بشكل صَدَفة.

صلَّيتُ لتكون هذه الإصبعُ، التي ستنعكس على زجاج أنبوب الاختبار، أجملَ وأكثر طراوةً.

لا بدَّ من أنَّ سائل الحفظ سيكون دافئًا وساكنًا. لن يكون باردًا ومتلألئًا كعصير الليمون. سيغلِّف كلَّ شيء، من نهاية الظفر حتى أخاديد بصمات الأصابع، بينما تحفظه سدادةُ الفلِّين من الغبار ومن ضجيج الخارج. والأهمُّ، كان باب المخبَر ثخينًا وثقيلًا، لذلك يمكنني أن أرحل بأمان.

هل سيهتمُّ السيِّد ديشيمارو بعيِّنتي؟ أرغب في أن يمسك بالأنبوب، من وقت إلى آخر، ليراقب بِنصري العائمةَ. سأغوص عميقًا في نظرته. وبالتأكيد، ستكون عيناه، المرئيَّتان من خلال سائل الحفظ، أكثرَ صفاءً.

أغلقتُ يدي لأُخْفِيَ بِنصري قبل أن أطرق باب المخبَر.

حوَّل السيِّد ديشيمارو مسكنًا قديمًا لفتيات شابّات إلى مختبر، وراح يعمل فيه كمحنِّط ذكريات: يُحَضِّر "العيِّنات" ويحفظها. أمَّا راوية القصَّة فتعمل مساعدةً له وموظَّفةَ استقبال، تتلقَّى من الزبائن أشياءَ غريبةً من حياتهم جاؤوا بها إلى المتخصِّص الغامض: عظامَ عصفور، فطورًا صغيرة جدًّا، لحنًا، ندبةً...

المساعدة الشابَّة ذاتها كانت قد تعرَّضتْ لحادثٍ في عملها السابق؛ ورويدًا رويدًا تقع تحت تأثير سحر ربّ عملها، وتلج دهليز الذاكرة الخطر هذا.

يوكو أوغاوا روائيّة يابانيّة، نالت جائزة آكوتاغاوا، أرفع الجوائز اليابانيّة، على روايتها "الحمل". صدر لها عن دار الآداب "حوض السباحة" و"غرفة مثاليّة لرجلٍ مريض".

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

ISBN: 978-9953-89-644-1
9789953896441

دار الآداب
بيروت - لبنان
هاتف: 1795135 - 1861633 (961+)